"بسم الله الرحمن الرحيم"

جامعة الازهر
كلية أصول الدين والدعوة بأسيوط
الدراسات العليا والبحوث
قسم الدعوة والثقافة الاسلامية

الدعوة الاسلامية فى العصر المملوكى

رسالة جامعية للحصول على درجة التخصص "الماجستير"

إعـــداد الباحث
أحمد رفاعى إسماعيـــــل

إشـــراف
الأستاذ الدكتور/ هاشـم عبد الظاهـر إبراهـيـم

عميد كلية الدراسات العربية والاسلامية بقنـا
والأستاذ بقسم الدعوة والثقافة الاسلامية
بكلية أصول الدين والدعوة الاسلامية بأسيوط

١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م

اهداء من

احمد رزق

نسألكم الدعاء

صدقة جارية عنه وعن والديه

شكر وتقدير وإجلال

" شكر وتقدير واجلال "

أما الشكر فلله وحده الذى من على بهذا الفضل العظيم وهذه المنزله الرفيعة . لذلك فأننى مقرلة - سبحانه وتعالى - بالشكر إلى أن يرث الأرض ومن عليها " وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ".

وأما التقدير والإجلال فلأستاذى ومشرفى الفاضل والأب الرحيم الأستاذ الدكتور / هاشم محمد الظاهر الذى لمست فيه خصالا قلما اتصف بها غيره . وهذه حقيقة لا مجاملة ، وواقعاً لا خيال .

لقد وجدته طيب القلب ، صافى السريرة ، ذا نزاهة وخلق كريم فقد غمرني بإرشاداته وتوجيهاته وكان يحمل همى أكثر من نفسى فجزاه الله عنى وعن الإسلام والمسلمين خير الجزاء

"إنّ ربى قريب مجيب"

المقدمــــة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى قال "وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ"[1] وأشهد ألا اله الا الله المعز المذل السميع البصير الذى إن أراد بعبد خيرا فقهه فى الدين .

وأصلى وأسلم على من عترته خير عتره ، وشجرته خير شجرة ، نبتت فى حرم ، وبسقت فى كرم ، النبى الأمى الذى علم المتعلمين والذى نشر بالسماحة والأخلاق مبادئ الإسلام والدين ، فأنارت بنوره البلدان شرقا وغربا .

أما بعد :

فإن الناظر بعين المستطلع لأغوار التاريخ الإسلامى يعلم بما لا يدع مجالاً للشك أن الدولة المملوكية شغلت فترة كبرى وزمنا طويلاً من مسيرة الإسلام والمسلمين ومن تاريخهم المشرق العريق ، لقد شكلت الدولة الإسلامية المملوكية هى ومثيلاتها من الدول الإسلامية القلعة الحصينة لهذا الدين ، ووقفت تلك الدول شامخة فى وجه الطامعين سواء من الصليبيين أو التتار أو غيرهم ممن حاولوا أن ينالوا ~~استأصل~~ شأفة هذا الدين ، فما زلنا نذكر إلى يومنا هذا بطولات المنصورة ، وعين جالوت ، وسقوط قلاع الصليبية العالمية ، والتتار الهمج تحت معاول دولة المماليك المسلمة .

هذه الدولة التى لم تكن عربية المنشأ ، ولكنها أثبتت بكل جدارة أن الإسلام لم يأت لأناس دون أناس ، وأن دعوة هذا الدين جاءت إلى الناس جميعاً ، أسودها وأبيضها ، أحمرها وأصفرها .

---

(1) سورة فصلت آية ٣٣ .

" إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ (1) " .

ونظراً لما قدمته تلك الدولة من خدمة للإسلام والمسلمين اخترت عنها موضوعي هذا .

* سبب اختياري للموضوع :

١ - إنّ الدولة المملوكية أثرت تأثيراً كبيراً في تاريخ الإسلام والمسلمين بفضل دعاتها ومنشآتها وانتصاراتها المدوية التي أنقذت البشرية من بحر من الدماء .

٢ - تعرضت الدولة المملوكية إلى كثير من الغبن والظلم من جانب بعض الباحثين المستشرقين الحاقدين على الإسلام والمسلمين ، وقالوا عنها إنها كانت دولة الرقيق والعبيد ، وقالوا إنّها أكلت أموال الشعب ، وإنّها دولة الصراعات والنهب والسلب ، فكان من واجبي كمسلم أنْ أدفع عن تلك الدولة المسلمة الغبن والجور الذي أحاط بها .

٣ - حققت دولة المماليك في مجال الدعوة الإسلامية نظاما يمكن أن تسير عليه دعوة المسلمين في أي عصر من العصور بنظامها ونظمها الإسلامية ومنشآتها الدعوية واهتمامها بالعلم والعلماء والمساجد والمدارس العلمية .

٤ - تحقيق العبرة المرتجاة القائلة أن المتمسك بحبل الله ما ضل وما قل وما ذل وهذا ما شاهدناه في تلك الدولة ، فعندما تمسكت بحبل الله المتين قويت وعزت وانتصرت ، وحين تخلت بعض التخلي حدثت فيها الفتن والمنازعات وكان ذلك سبباً لسقوطها في النهاية ، ولله

---

(١) سورة الحجرات آية ١٣ .

الأمر من قبل ومن بعد يعز من يشاء ويذل من يشاء ٠

محتوى البحث

منهجي في البحث :-

وقد اشتمل هذا البحث على : مقدمة وثلاثة أبواب وخاتمة

أما المقدمة : فقد ذكرت فيها :-

أ - سبب اختياري للموضوع ٠

ب - منهجي في البحث فيه ٠

وأما الباب الأول :

عنونته بعنوان " المماليك " وقسمته إلى ثلاثة فصول :-

الفصل الأول : تحدثت فيه عن المماليك من حيث أصلهم ونشأتهم والإختلاف حولهم وكيفية جلبهم وكيفية تربيتهم ودورهم في دولة الأيوبيين السابقة لهم ٠

الفصل الثاني :- تحدثت فيه عن الحياة السياسية والاجتماعية في العصر المملوكي ٠

الفصل الثالث : الحركة العلمية في العصر المملوكي تحدثت فيه عن تنظيم التعليم وأنواعه وبعض مدارسه وختمت الفصل بمظاهر الحركة العلمية في ذلك العصر وأسباب ازدهارها ٠

وأما الباب الثاني :

فقد عنونته بعنوان " المظاهر العامة للدعوة الإسلامية في العصر المملوكي " وهو أهم الأبواب بل هو لب الرسالة وعمودها وقد احتوى على أربعة فصول ٠

الفصل الأول : تحدثت فيه عن دور سلاطين المماليك في خدمة الدعـــوة الإسلامية .

والفصل الثاني : تحدثت فيه عن دور سلاطين المماليك في الدفاع عن البلاد الإسلامية .

والفصل الثالث : تحدثت فيه عن دور الفتوحات الإسلامية في العصر المملوكي وأثرها في خدمة الدعوة الإسلامية .

والفصل الرابع : تحدثت فيه عن أبرز علماء العصر المملوكي وأثرهم في نشـــر الدعوة الإسلامية .

وأما الباب الثالث والأخير فقد عنونته بعنوان " الدولة المملوكية بين الشبهات والسقوط " . وقد اشتمل على فصلين :

الفصل الاول : تحدثت فيه عن المزاعم والمفتريات التي أفتريت على تلك الدولة المملوكية ، وقد رفعت فيهما وفقني الله الغبن عنهم .

الفصل الثاني : تحدثت فيه عن أسباب وكيفية سقوط ونهاية دولة المماليـــك الإسلامية .

وقد ذيلت هذا البحث بخاتمة ذكرت فيها أهم النتائج التي توصلت إليها .

وبعد : فقد دانت هذه السطور لراقمها بالشكر العميق وقدمت فيها قـــدر طاقتي ، غير أنّ سياط الزمن أصابت بعض نقاطها في مقتل ، وهذا إن دل فإنّما يدل على بشريتي وقلة حيلتي إنّ لم يسعفني رب العالمين ، فإن أصبت فمن عند الله وإن أخطأت فمن نفسي ، ولله الأمر من قبل ومن بعد هـــو مولاي ، وعلى الله فليتوكل المتوكلـــون .

الباب الأول

المماليـــــــــــــك

ويشتمل على ثلاثة فصول :

* الفصل الاول : نشأة المماليك
* الفصل الثانى : الحالة السياسية والحياة الاجتماعية فى العصر المملوكى
* الفصل الثالث : الحركة العلمية فى العصر المملوكى

الفصل الأول

نشــــأة المماليــــــك

الباب الأول

" المماليك "

الفصل الأول

" نشأة المماليك "

أصل المماليك :

أحوال وأعمال

للبحث في طبيعة المماليك تثور تساؤلات عديدة مثل من هم المماليك ؟ هل هم أرقاء أم أحرار ؟ وكيف أصبح مملوك اليوم سلطان الغد ؟ .

وفي الحقيقة أن المؤرخين اختلفوا في هذا الشأن اختلافا كبيرا فمنهم من عامل المماليك في كتاباته على أنهم رقيق اغتصبوا الحكم دون أن تكون لهم أهلية الولاية لأمور المسلمين بل أن هؤلاء الكتاب لم يكتفوا بذلك بل وإنما حاولوا الحط من قدر سلاطينهم وأمرائهم في أكثر كتاباتهم بأنهم عرضوا[1] بأصلهم الوضيع وما مروا به من رق، وعبودية فكان ذلك التشهير والحط من قدر أولئك الرجال الذين كانوا يوماً من الأيام سادة هذه البلاد وحكامها .

ونفى عنهم البعض صفة الرق نهائيا مثل الدكتور/ عبد المنعم ماجد حيث يرى أن كلمة (مملوك) في أصلها اللغوي مستخرجة من فعل (مَلَكَ) لتعني الرقيق الذي يشترى بقصد تربيته والاستعانة به كجند وحكام على عكس لفظة (العبيد) مفردها (عبد) ومؤنثها (أمة) التي استعملت في العصر العباسي الأول . وذلك أن الإسلام بميوله الإنسانية كان يرفع من شأن الرقيق إذ أن لفظة العبيد تعني العبودية[2] والعبد يولد من الرقيق بينما المملوك يولد من

---

(١) انظر / راسم رشدي : مصر والشراكسة ص ٤٥ القاهرة ١٩٤٨م .

(٢) انظر د . / عبد المنعم عبد الماجد ماجد : طومان باي آخر سلاطين المماليك في مصر ص ١٢ : مكتبة الانجلو المصرية ط ١٩٧٨ .

وعليه مؤاخذات في نسب الرسول

أبوين حرين ويباع[1] . ونحن نرى خلاف ذلك حيث المملوك الذى يولد من أبوين حرين ويباع يعتبر رقيقا . إذ أن الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم استرقوا بعض الأسرى طبقا لقاعدة المعاملة بالمثل وهم لم يبيحوا الرق فى كل صورة من صوره كما كان فى الشرائع الإلهية والوضعية السابقة وإنما حصروه فى الحرب المشروعة المعلنة من المسلمين ضد عدوهم الكافر[2] . أى أنّ أسير الحرب يعتبر رقيقا رغم أنه من أبوين حرين . وبناءً على ماسبق يمكن أن يكون المملوك رقيقا ويؤكد ذلك ما ورد فى القاموس القويم فى تعريف لفظة (العبد) . فالعبد بالنسبة لله الإنسان الحر أو الرقيق وكلاهما مملوك لله خاضع لحكمه وإرادته أما العبد بالنسبة للإنسان : الرقيق المملوك ويجمع على جموع منها عباد وعبد : كخدم ، وعبيد[3] : ومن ذلك قوله تعالى "وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ"[4] .

وخلاصة القول فى المماليك الذين نحن بصدد الحديث عنهم : أنهم فى الأصل رقيق مستجلب من أصول قفجاقية[5] تركية أو شركسيه من جنوبى روسيا القوقاز . وكان هؤلاء يصلون إلى القاهرة صبيانا عن طريق الشراء أو فتيانا أو أسرى حرب أو هربا من دولة صديقة أو حليفة وفى القاهرة كانوا يخضعون لتربية عسكرية أو إسلامية لعدة أعوام حتى إذا انتهى تدريبهم

---

(1) انظر د . أحمد شلبى موسوعة التاريخ الاسلامى ص ٢١٥ : ٢١٨ حيث يتفق فى ذلك والدكتور عبد المنعم ماجد .
ويتفق فى ذلك لرأى د . راسم رشدى مصر والشراكسه ص ٥ : ٤٨ القاهرة ١٩٤٨ .

(2) انظر السيد سابق : فقه السنه جـ ٣ ص ٨٨ .

(3) ابراهيم أحمد عبد الفتاح : القاموس القويم للقرآن الكريم جـ ٢ ص ٣ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٣م .

(4) سورة الفرقان آية رقم ٦٣ .

(5) قفجاقية :- تشمل بلاد القفجاك حوض الفلجه والأراضى التى حول بحر قزوين .

الجندية

جرى تحريرهم (عتقهم) وضمهم إلى الهدمية العسكرية المملوكية[1] .
فالثابت أن المماليك كانوا يعتقون عندما يسلكون في الوظائف السلطانية
أو بذلك اكتملت أهلية المماليك في تولي أمور المسلمين وذلك ما نراه واضحا في
موقف العز بن عبد السلام حيث رفض مبايعة الظاهر بيبرس باعتباره مملوكا
غير كامل الأهلية ولا تجوز له الولاية ولكن الظاهر بيبرس أثبت أنه أعتق فبايعه
الشيخ وعلماء ذلك العصر . ولكن كيف وصل مملوك اليوم سلطان الغد ذلك
ما سنتعرض له من خلال الآتي :-

أولاً : ظهور المماليك في العالم الإسلامي :

يرجع ظهور المماليك في العالم الإسلامي إلى ما قبل قيام دولتهم بأمد
طويل وربما كان أول من استخدمهم هو الخليفة المأمون العباسي ١٩٨هـ -
٢١٨ / ٨١٣م - ٨٣٣م إذ كان في بلاطه بعض المماليك المعتوقين ثم
استخدم الخليفة المعتصم العباسي ٢١٨هـ - ٢٢٧ / ٨٣٣م - ٨٤٣م فرقان
التركمان لتدعيم سلطانه[2] . وهكذا لعب المماليك دوراً بارزاً في تدعيم سلطان
الخليفة .

ثانيا : ظهور المماليك في مصر :

اعتمد أحمد بن طولون مؤسس الدولة الطولونية التي قامت في مصر
سنة ٢٥٤ - ٢٩٢ هـ / ٨٦٨ - ٩٠٥ م على المماليك ويمكن القول بأنه أول من
استخدم المماليك في مصر في جيشه وجلبهم إليها بأعداد ضخمة .

---

(١) انظر ابن العمري مسالك المماليك ص ٤٦

(٢) انظر د . علي ابراهيم حسن : تاريخ المماليك البحرية ص ٢٣ النهضة
المصرية ط ٣ ١٩٦٧ .

رجاء التمكن من

قيل إنهم بلغوا أربعة وعشرين ألف مملوك ، رجاء أن التمكن من استقلال مصر عن الخلافة العباسية ولم يكن الأخشديون أقل من أحمد بن طولون في استخدام المماليك[1] . وكذلك لجأ الفاطميون حين انتقل لهم حكم مصر سنة ٣٥٨ - ٥٦٧ هـ / ٩٦٩ - ١٠٧١ م حيث كانوا في حاجة إلى جيش كبير يستطيعون به حماية سلطانهم فلجأوا إلى الأتراك وشراء المماليك . فلما قامت الدولة الأيوبية في مصر ٥٦٧ / ٦٤٨ هـ / ١٠٧١ - ١٢٥٠ م جلب سلاطينها أعدادا ضخمة من المماليك واعتمدوا عليهم في جيشهم وبناء قوتهم وقد راجت تجارة الرقيق من الجيش التركي والشركسي في أواسط آسيا وفي غربها فابتاع الملك الصالح نجم الدين أيوب عددا من هؤلاء الأرقاء فرباهم تربية عسكرية وأنزلهم بجزيرة الروضة وهؤلاء سموا بالمماليك البحرية[2] وقد ارتقى عدد منهم إلى المناصب الكبيرة أمثال فارس الدين أقطاى وعز الدين أيبك ، بيبرس وقلاوون .

ثالثا : طريقة تربيتهم :

نؤدي

لعله من المناسب أن تلقى الضوء على تربية هؤلاء المماليك فالتربية تلعب دورا هاما في تكوين الشخصية وسلوكها وكانت تربية هؤلاء المماليك وتدريبهم تمر بمراحل متعددة ، فإن تجار الرقيق يجلبون أعدادا منهم يعرضونهم على السلاطين ، وكان السلاطين يختارون أحسنهم حجة وذكاء فإذا تمت عملية الشراء وضعهم السلاطين في أبراج خاصة بهم ورتبوا لهم من الفقهاء

---

(١) انظر / د . فايد حماد عاشور : العلاقات السياسية بين المماليك والمغول في الدولة المملوكية الأولى ص ٢٠ ودار المعارف ط ٢ ١٩٨٢ .

(٢) د . محمد محمد خليفة وذكي علي سويلم : الأدب العربي وتاريخه ص ١١ .

والعلماء من يلقنهم الدين والعلوم ويأخذهم بملازمة الفرائض[1] . ولعل ذلك يفسر بلوغ بعض سلاطين المماليك مرتبة العلماء كالسلطان الملك المؤيد وغيره .

ويفسر لنا أيضا الحرص البالغ لسلاطين المماليك في الدفاع عن المسلمين وجهادهم العظيم ضد الصليبيين والتتار والذي يبحث في تلك المعارك يتضح له أن هؤلاء القوم لم يجاهدوا لغرض من أغراض الدنيا وإنما لإعلاء شرع الله .

فكانت تلك المرحلة من مراحل التربية بمثابة قواعد لبنيان الدولة المملوكية .

وبعد انتهاء هذه المرحلة ووصول المملوك إلى سن الشباب يوكل إلى مدربين عسكريين لتلقينهم النظم العسكرية وفنون الحرب وبعد ذلك ينتقل لخدمة سيده ليلحق بحرسه الخاص أو بديوانه أو بجيشه . وسواء كان عمله هنا أو هناك فإن مواهبه قد تدفعه إلى الصدارة[2] وتولى الحكم

رابعاً : كيفية انتقال السلطة من الدولة الأيوبية إلى الدولة المملوكية :

بعد أن مات الملك الصالح الأيوبي انتقلت السلطة إلى ابنه الملك المعظم توران شاه[3] . الذي نزل في قصر أبيه ومن يومئذ أعلن بموت الملك الصالح

---

(١) انظر د . أحمد شلبي موسوعة التاريخ الاسلامي جـ٥ ص ٢٢ . مكتبة النهضة ط ١٩٩٠ .

(٢) انظر المرجع السابق جـ٥ ص ٢٢٦ .

(٣) توارن شاة : هو الملك المعظم توارن شاه بن السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب بن السلطان الملك الكامل محمد بن السلطان الملك العادل أبي بكر بن الامير نجم الدين أيوب . كان أبوه قد ولاه حصن كيفا في الشرق ثم كان يستدعيه فلا يجيبه فلما مات والده استدعته شجرة الدر . انظر : عقد الجمان جـ١ ص ٢٣ .

نجم الدين أيوب ولم يكن أحد قبل هذا اليوم ينطق بموته بل كانت الأمور على حالها والدهليز الصالحي والسماط ومجئ الأمراء إلى الخدمة على ماكان عليه الحال في أيام حياته وشجرة الدر تدير الأمور للدولة[1] مدعية مرض السلطان . ويدل هذا الموقف على قدرة وشجاعة شجرة الدر في مواجهة المواقف وتسيير الأمور . ولكن سرعان ما قتل المماليك توارن شاه ؛ حيث قيل إنه أساء إلى المماليك وتوعدهم . وصار إذا سكر في الليل جمع ما بين يديه من شمع . وضرب رؤسها بالسيف حتى تنقطع ويقول هكذا أفعل بالبحرية[2] . فقتلوه شر قتلة . فقيل إنه اشترك في قتله ثلاثة أشياء السيف والنار والماء . حيث اجتمعت البحرية على قتله بعد نزوله بفراسكور وهجموا عليه بالسيوف ؛ فهرب المعظم منهم إلى البرج الخشب الذى نصب له بفراسكور ، فأطلقوا في البرج النار ، فخرج المعظم من البرج هارباً طالباً البحر ليركب في جراقته فحالوا بينه وبينها بالنشاب ، فطرح نفسه بالبحر فأدركوه وأتموا قتله وكانت مدة إقامته في الملك من حين وصوله إلى الديار المصرية شهرين وأياما . وعقب قتله نادى كبار رجال الدولة شجرة الدر سلطانة على مصر وتلقبت بعدة ألقاب منها الملكة " عصمت الدين - شجرة الدر " والستر العالي والدة الملك الخليفة ودعي لها على المنابر ملكة المسلمين على أن الأحوال اضطربت على أثر توليها الحكم . فإن الخليفة العباسي نعى على أهل مصر أن تتولى امرأة

---

(١) انظر المقريزى : السلوك جـ١ ص ٢٣ - القاهرة ١٩٧٠ .

(٢) انظر المرجع السابق جـ١ ص ٣٦ .

(٣) انظر العيني : عقد الجمان جـ١ ص ٢٦ - تحقيق د . / محمد محمود أمين . ط الهيئة المصرية العامة للكتاب .

العرش . ولم يتمكن أمراء المماليك من أن يحصلوا على موافقته على اختيارها بل على العكس رد الخليفة العباسي على طلبهم بقوله " إن كان الرجال قد عدموا عندكم فأعلمونا حتى نسير لكم رجالا . وتدل تلك الأحداث على الولاء الخالص من المماليك لأستاذهم الملك الصالح نجم الدين أيوب حيث أنهم بايعوا السلطان الملك المعظم توران شاه ولكنه قابل الإحسان بالإساءة فكان جزاؤه القتل ولم يطمح المماليك في توليهم السلطنة، حيث سلطنوا زوجة أبيه شجرة الدر وقدموا لها الولاء والطاعة وأرادوا أن يضفوا على حكمها الشرعية ولكنهم فشلوا بسبب الأحداث التي وقعت من عصيان وتمرد الملك المغيث بالكرك[1] واستيلائه عليها وعلى الشوبك واستيلاء الملك الناصر صاحب حلب على دمشق ووقوع الاضطراب في مصر مما أدى لاجتماع البحرية والأتراك وأجمعوا أنهم لا يمكنهم حفظ البلاد وأمر الملك لامرأة[2] واتفق أمرهم على أن يفوض أمر الملك إلى الملك المعز عز الدين أيبك وكان أيبك عفيفا لا يمنع

---

(١) الكرك : مدينة ذات قلعة تعرف بكرك الشوبك والشوبك أقدم منها والكرك مدينة محدثة البناء كانت ديرا للرهبان ثم كسروا فوسعوا بناءه وآوى اليها أناس من النصارى فقامت لهم بها معايش وآوت اليه الفرنج فأدارت أسواره فصارت مدينة مشهورة ثم بنوا حصنا فكانت قلعة فاستولى عليها الفرنجة . وفتحت في زمان السلطان الملك الناصر صلاح الدين أبي المظفر يوسف بن أيوب . انظر " ابن فضل الله العمرى " مسالك الأبصار في ممالك الامصار ص ٢١٢ تحقيق دورثيا كرافولسكي ٧٠٠ - ٧٤٩ هـ / ١٣٠١ - ١٣٤٩ م

(٢) الملك المعز هو أول ملوك الترك وهو السلطان الملك المعز عز الدين ايبك التركماني يقال انه في الأصل مملوكا لبيت فخر الدين بن تركماني الذى كان متولي الاعمال الخيرية وارتجع الى بيت الملك الصالح نجم الدين أيوب ولم تزل تنتقل به الاحوال الى الملكة الديار المصرية " بن ايبك : كنز الدر جـ٨ ص ١٢ .

أحدا حاجة ولا يشرب مسكرا[1] وكانت سلطنته في أواخر ربيع الآخر عام ٦٤٨ هـ أغسطس ١٢٥٠م ولكن لم تمض أيام خمسة حتى طالب المماليك الصالحون بأن يكون السلطان من بني أيوب من بين زعمائه الأمير فارس الدين أقطاي والأمير ركن الدين بيبرس المنقداري والأمير سيف الدين بلقان الرشيدي . وتحت ضغط المماليك الصالحين اختاروا الملك الأشرف[2] ملكا وكان صغير السن وحدثت وقائع بين المعز أيبك والمماليك الصالحين انتهت بعزل الأشرف من السلطة واستقلال الملك المعز أيبك بالحكم وبذلك زالت الدولة الأيوبية وانتقل الحكم إلى الدولة المملوكية وقد سبق أن تزوج الملك المعز صاحب مصر من شجرة الدر ولكن لم يستمر ذلك الحال كثيراً حيث شاع الخبر أن الملك المعز صاحب مصر سيتزوج بابنة صاحب الموصل فعظم ذلك على زوجته شجرة الدر وعزمت على الفتك به واتفقت مع جماعة من الخدم ووعدتهم بأموال عظيمة فركب المعز للعب الكرة وجاء منهكا فدخل الحمام ليغتسل فلما صار عريانا رمته الخدم إلى الأرض وخنقوه ليلا ولم يدر به أحد فأصبح الناس من الأمراء والكبراء على عاداتهم للخدمة فإذا هو ميت[3] . ثم سلطنوا ابنه الملك المنصور علي وقتل مماليك المعز شجرة الدر قتلة شنيعة جزاء لجريمتها ولم يستقر الملك المنصور علي في الحكم طويلا حيث اجتمع الأمراء

---

(١) انظر ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب جـ٥ ص ٢٦٨ . دار الآفاق الجديدة بيروت .

(٢) الملك الأشرف : مظفر الدين موسى بن الملك المسعود صلاح الدين يوسف الملقب باستر بن عبد الملك الكامل بن العادل بن أيوب عقد الجمان جـ ١ ص ٣٥ .

(٣) انظر ابن العماد الحنبلي " شذرات الذهب " جـ ٥ ص ٢٦٨ بيروت .

وأعيان

والكبراء وعيان المعسكر على أنه لا غنى للمسلمين عن ملك يقوم بحماية رايـــة الدين خاصة عندما تيقنوا من قصد التتار الديار المصرية وأجمعوا على إقامـة الأمير سيف الدين قطز المغربي[1] سلطانا وهزم قطز التتار في (عين جالوت) ولكنه قتل أثناء عودته وانتقل الحكم إلى الملك الظاهر بيبرس الذي يعتبر المؤســس الحقيقي لدولة المماليك البحرية . ولقد استمرت الدولة المملوكية في حكم مصر فترة تقرب من ثلاثة قرون بداية من سقوط الدولة الأيوبية إلى قدوم العثمانيــن إلى مصر ١٥١٧ م وفي الحقيقة أن قيام دولة المماليك قد استغرق ما يزيد على عشرة أعوام كانت المحصلة النهائية لمجموعة من الأحداث اتخذ قسم منها شكـل

---

(١) قطز المغربي هو سيف الدين قطز عبد الله التركي أخص المماليك الملك المعز أيبك التركماني أحد مماليك الملك الصالح نجم الدين أيوب العيني عقد الجمان ج ١ ص ٢٥٥ وقال العدل أمين محمد بن ابراهيـم ابن أبي بكر بن عبد العزيز أبو الغوارس الجذري حكى لي والدي عـن بدء شأن الملك المظفر قطز رحمه الله كان في رق العريم ، أو قـال ابن الزعيم بدمشق القصاعين والصحيح أنه بن الزعيم اتفق أن استاذه غضب عليه بشيء أحدث منه فلطمه على وجهه ولعنه وأبيه وجده . ثـم انه جلس يبكي ويشحب وزاد في بكاء عن حد القياس فقال له الحجـاج على الفراش وكان الحجاج على في بيت بن الزعيم هذا البكاء كله مـن ضربة أو ضربتين فقال والله ما أبكي للضرب ولكن لسب أبي وجدي ؟ وهم والله خير من أبيه وجده فقال له الفراســن ومن أبوك وجدك ؟ فما كان الا كافرين فقال له لا والله بل أنا مسلم بن مسلم الى عشرة جدود وأنـا محمود بن محدود بن أخت خوازم شاه السلجوكي ولا بد أن أملك مصـر وأكثر التتار انظر كنز الدرج ٨ ص ٤٠ : ٤٩ - القاهرة ١٩٨٠ .

صراع بين الرجال في الدولة الأيوبية من ناحية ورجال دولة المماليك من ناحية ثانية واتخذ قسم ثاني منها في شكل صراع بين الجبهة الإسلامية ممثلة في المماليك والمغول والغزاة[1] . وقد عرفت مصر في حكم دولة المماليك عصرين أو دولتين الأولى دولة المماليك البحرية (٦٤٨ - ٧٨٣ هـ) (١٢٥٠ - ١٣٨٢ م) وترجع تسميتهم نسبة إلى غالبية سلاطينها من المماليك الذين اشتراهم الأيوبيون وأسكنوهم في جزيرة الروضة بالنيل أو ماكان يسمى البحر أيضا . حيث قضى هؤلاء المماليك على دولة الأيوبين وتولوا الحكم بعدهم فنسبوا إلى هذه البحرية التي كان الملك الصالح الأيوبي قد بناها[2] .

الثانية دولة المماليك البرجية (٧٨٤/٩٢٣ هـ) (١٣٨٢/١٥١٧ م) وتسميتهم نسبة لأن غالبية سلاطينهم من المماليك الذين كانوا يسكنون بروج القلعة على جبل المقطم حيث يعتبر السلطان قلاوون البحري أول من استكثر هذا النوع من المماليك[3]

خامسا : العوامل التي ساعدت على نشوء دولة المماليك :

في الواقع أن هناك عوامل داخلية وخارجية ساعدت على نشوء وصمود الدولة المملوكية في مواجة الأخطار فكانت تلك العوامل بمثابة التربة الصالحة

---

(١) انظر د . / حامد غنيم أبو سعيد " الجبهة الاسلامية في عصر الحروب الصليبية جـ٣ ص ٦٠ .

(٢) انظر د . / سهام مصطفى أبو زيد (الحسبه في مصر الاسلامية من الفتح العربي الى نهاية العصر المملوكي) ص ٩٠ الهيئة المصرية العامة للكتاب .

(٣) انظر د . / عبد المنعم ماجد (طومان باي آخر سلاطين المماليك) ص ٢٧ مكتبة الانجلو المصرية ط ١٩٧٨ .

لوجود ذلك العنصر المملوكي . فقامت الدولة المملوكية وسنذكر بشيء من الإيجاز بعض العوامل الداخلية والخارجية التي ساعدت على نشوء الدولة المملوكية .

أولا : العوامل الداخلية :

١ - انقسام الدولة الأيوبية على نفسها عقب وفاة صلاح الدين الأيوبي ٥٨٩هـ ١١٩٣ م وإحلال الصراعات محل الوئام والوحدة[1] . وكانت الفرصة المواتية أمام الدولة الأيوبية كي تجدد شبابها هي الفترة التي أعقبت الإنتصار على الحملة الصليبية السابعة ، غير أن توارن شاه لم يكن بالرجل الذي تساعده مواهبه على انتشال الدولة من محنتها ووضعها على الطريق الصحيح ، وكانت تصرفات هذا السلطان في الأيام القليلة التي أعقبت الإنتصار على الصليبيين تؤكد أن النظام الأيوبي في مصر قد قرر أن يعيش محنة السقوط والاختفاء[2] .

٢ - كفاءة وقدرة المماليك الحربية أكسبت المماليك احتراماً وتقديراً بالغاً من سلاطين الدولة الأيوبية فلا يخفى علينا ما كان يكنه الملك الصالح نجم الدين أيوب لمماليكه من التقدير والاحترام حتى وصلوا إلى مناصب كبيرة في الدولة الأيوبية : أمثال فارس الدين أقطاى ، بيبرس وقطز وقلاوون

وهناك عوامل داخلية كثيرة

(١) للمزيد عن الانقسامات التي دارت مؤخرا في البيت الأيوبي انظر د / محمد كمال عز الدين (التاريخ والمنهج التاريخي) لابن حجر العسقلاني ص ٤٩ . وانظر د / أحمد شلبي موسوعة التاريخ الاسلامي جـ ٥ ص ٢٠٢ - مكتبة النهضة المصرية ١٩٩٠ .

(٢) انظر د / حامد غنيم أبو سعيد (الجبهة الاسلامية في عصر الحروب الصليبية جـ ٢ ص ٢٧٤ - دار الثقافة للطباعة والنشر ١٩٨٤ .

ثانيا : العوامل الخارجية :

١ - إن المماليك كانوا بمثابة الدماء الجديدة التي كانت تطلبها حركة الكفاح ضد الصليبيين في هذه المرحلة من كفاحها فقد شاءت الأقدار أن يمر العالم بمحن كثيرة وابتلاءات عظيمة . وقد جاء العدوان الصليبي على مصر بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا سنة ٦٤٧ هـ - ١٢٤٩ م فرصة لإبراز أهمية فرسان المماليك في الدفاع عن العالم الإسلامي فقد كان للخطة التي وضعها بيبرس البندقداري ونفذها فرسان المماليك في شوارع المنصورة[1] - الأثر البالغ في هزيمة جيش الصليبيين واستطاع هؤلاء بمساعدة المتطوعين المصريين القضاء تماما على الجيش الصليبي وأسر لويس نفسه[2] وكان انتصار المصريين على الصليبيين بين المنصورة وفراسكور بمثابة صرخة الميلاد لدولة سلاطين المماليك وإن كان بعض المؤرخين يعتبر أن الدولة الوليدة مرت بفترة تجربة استمرت عشر سنوات بين معركة المنصورة ٦٤٧ هـ / ١٢٥٠ م وبين تولية سيف الدين قطز سلطانا على مصر وهو دور القوى الضاربة المدافعة عن العالم الإسلامي فللمرة الأولى في تاريخ المسلمين يجدون أنفسهم بلا خلافة بعد مقتل المعتصم بالله

---

(١) عن تفاصيل المعركة انظر / محمد مصطفى زيادة حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته في المنصورة ص ١٤٥ : ٢٠١ القاهرة ١٩٦١ .

(٢) انظر د / قاسم عبده (دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي عصر سلاطين المماليك ص ٨ - دار المعارف ١٩٨٣ .

العباسي في بغداد ٦٥٦ هـ وانجلى هذا الحدث الذي زلزل أركان العالم الإسلامي[1] وكان على دولة المماليك الناشئة أن تتصدى للخطر التتاري وهو ما قامت به دولة المماليك على أيدي سلطانها سيف الدين قطز الذي أذاق التتار مرارة الهزيمة بعين جالوت ومن بعده واصل الملك الظاهر بيبرس وسلاطين الدولة المملوكية الجهاد ضد الصليبيين والتتار ما أكسب المماليك صفة شرعية في الحكم هذا إلى جانب إحياء الخلافة الإسلامية في عهد الملك الظاهر بيبرس البندقداري .

(١) انظر د. / قاسم عبده (دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي عصر سلاطين المماليك ص ٨ - دار المعارف ط ١٩٨٣ .

الفصل الثانى
الحالة السياسية والحياة الاجتماعية
فى العصر المملوكى

الفصل الثاني

الحالة السياسية والحياة الإجتماعية فى العصر المملوكى

أولاً : الحالة السياسية فى العصر المملوكى :

للحديث عن الحالة السياسية فى العصر المملوكى لا بد أن نشير إلى أن الحالة السياسية فى ذلك العصر لم تكن على وتيرة واحدة .

حالة التفكك والتمزق :

اتصفت الحقبة السياسية الأولى بالتفكك والصراع على السلطة . ففى نهاية عصر الدولة الأيوبية وبالتحديد بعد وفاة صلاح الدين الأيوبى ٥٨٩هـ/١١٩٣م سادت الفتن وانقسم المسلمون فى كل بقاع الأرض إلى دويلات وحوزات ملوك ينظر بعضهم إلى بعض نظرة العدو المفترس لا نظرة المؤمن الموالى وتنظر الملوك إلى رعاياهم نظرة المتسلطين المسيطرين يسومونهم الخسف والهوان[1].

وبينما المسلمون على ذلك الحال الذى يرثى له وذلك الوضع الذى هم أقرب فيه عن حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ثوبان مولى رسول الله قال : قال صلى الله عليه وسلم " يوشك أن تتداعى عليكم الأمم من كل أفق كما تتداعى الأكلة على قصعتها . فقال قائل أمن قلة نحن يومئذ؟ ، قال أنتم يومئذ كثير ، ولكن تكونون غثاء كغثاء السيل ولينزعن الله المهابة من صدور عدوكم ويجعل فى قلوبكم الوهن . قال قائل يا رسول الله وما الوهن ؟ قال حب الدنيا وكراهية الموت[2]" ويصف ابن الأثير الأخطار التى حلت بالعالم الإسلامى فى ذلك الوقت فيقول لقد ابتلى الإسلام والمسلمون فى هذه الفترة بمصائب لم يبتل بها أحد من الأمم . منها هؤلاء التتار فمنهم من أقبلوا من الشرق ففعلوا

---

(١) انظر/ أبو زهرة " الامام ابن تيميه حياته وآراءه الفقهية ص ١٠٦ دار الفكر العربى .

(٢) مسند الامام / أحمد بن حنبل جـ ٥ ص ٢٧٨ .

الأفعال التي يستعظمها كل من سمع بها . ومنها خروج الفرنجة لعنهم الله وقصد هم ديار مصر أو غيرها على أن يملكوها لولا لطف الله تعالى ونصره إياها ومنها أن السيف بينهم مسلول والفتنة قائمة[١]. ويتضح لنا من ذلك الوصف أن المسلمين لم تواجههم أخطار خارجية من العدو الصليبي الماكر والتتاري الغاشم فقط وإنما واجهتهم أخطار داخلية وهي الفتنة والصراع على السلطة وتدلنا تلك الواقعة على ماكان عليه حال حكام المسلمين من تنافس على السلطة فقد علم الملك المظفر قطز بمسير نجدة التتار إلى الناصر . فخشي الملك المظفر قطز من استفحال الأمر فبعث رسله إلى الملك الناصر صاحب الشام يتودد فيها إليه ويقسم بالأيمان أنه لا ينازعه في الملك ولا يقاومه وأضاف أن المظفر ما هو إلا نائب للملك الناصر في مصر وأنه حتى قدم الناصر إلى قطز أقعده قطز على كرسي السلطنة وكتب له في رسالته :

" إن اخترتني خدمتك وإن اخترت قدمت ومن معي من العسكر نجدة لك على القادم عليك فإن كنت لا تأمن حضوري سيرت لك العسكر في صحبة من تختار[٢]" .

فلولا من الله على المسلمين بقائد عظيم هو الملك المظفر قطز لكانت تلك طامة كبرى حيث إن الملك الناصر استنجد بالتتار وأبدى التعاون معهم ضد سلطان مصر من أجل السلطنة ولكن القائد المسلم سيف الدين قطز استطاع أن يوحد صفوف المسلمين في مواجهة الخطر الزاحف .

---

(١) انظر ابن الأثير " الكامل في التاريخ ج ٩ ص ٣٣٠ - دار الفكر بيروت .

(٢) انظر د / قايد حماد عاشور : العلاقات السياسية بين المماليك والمغول في الدولة المملوكية الاولى ص ٣٧ - دار المعارف .

وفي أوائل ٦٥٩ هـ تعرضت الجبهة الإسلامية إلى تمزق في ثلاثة اتجاهات إتجاه في القاهرة، وآخر في دمشق، وثالث في حلب . وهذا انقسام خطير لو قدر الله أن يستمر لضاعت الجبهة الإسلامية بين عدويها المتربصين لها " المغول والصليبيين " وزاد من خطورة الأمر سقوط الخلافة العباسية .

سقوط الخلافة العباسية :

لأول مرة في تاريخ المسلمين يجدون أنفسهم بدون خلافة بعد مقتل الخليفة المستعصم بالله العباسي في بغداد سنة ٦٥٦هـ وسقوط بغداد في أيدي التتار مما أشاع الرعب في قلوب المسلمين في كل أنحاء الممالك الإسلامية .

ثانيا : الحالة السياسية بعد عودة الخلافة العباسية :

تغيرت الحالة السياسية في العصر المملوكي بعد إحياء الخلافة العباسية في السابع عشر من ربيع الآخر ٦٦٦ هـ على أيدي بيبرس على أنه لم يكن أول من فكر في إحياء الخلافة بل سبقه إلى التفكير في ذلك الملك الناصر يوسف صاحب دمشق الذي ما كاد يعلم من الأمير عيسى بن مهنا أن أميرا عباسيا[1] قدم إلى دمشق وحتى أرسل يستدعيه إليه غير أنه فوجئ بقدوم التتار فعاد الأمير ثانية إلى عيسى بن مهنا وعندما قدم الملك المظفر قطز إلى دمشق على

---

(١) هذا الامير هو أبو العباس أحمد بن أبي علي الحسن القبي بن علي ابن أبي بكر بن الخليفة المسترشد بالله بن المستظهر بالله وكان قد اختفى أثناء هجوم التتار على بغداد ثم تمكن من الفرار ما قام عند حسين بن فلاح أمير بني خفاجة ثم ذهب الى دمشق وقام عند الامير عيسى بن مهنا - (السيوطي - تاريخ الخلفاء ص ٣١٧ : ٣١٨ .

أثر انتصاره على التتار في موقعة (عين جالوت). أخبره الأمير عيسى بن مهنا بمقدم ذلك الأمير العباسي . فقال له إذا رجعنا إلى مصر أرسله إلينا لتعيينه إن شاء الله ونستفيد من ذلك أن قطز كان يرمي إلى تولية هذا الأمير خليفة للمسلمين غير أنه لم يعمر طويلا حتى ينفذ هذه الفكرة [1].

ولقد استفاد الإسلام بلا شك من إقامة خليفة يكون عنوانا للوحدة الإسلامية ورمزاً لجماعتها الموحدة . وإن كانت الخلافة قد عادت شكلاً لا قوة لها . فقد حاول الخليفة المستنصر بالله أن يعيد لها معناها وإن شكليا فإن بقاء الشكل قد يكون إيذاناً (إرهاصاً) بعودتها الحقيقية أو بوجوب عودتها وقتا من الأوقات فكانت الخلافة هيبة في قلوب الأعداء وشهدت تلك الفترة استقرارا نسبيا .

ثالثا : الحياة الإجتماعية في العصر المملوكي :

عاشت مصر عيشة ناعمة أيام الفاطميين وكانت الحياة الإجتماعية أقرب إلى الترف والبذخ . منها إلى حياة الجهاد والكفاح منها أقرب إلى الدعة والمدنية منها إلى الحرب وحياة الجندية فلو جاء الأيوبيون وقضوا عهدهم كله في الحروب الصليبية من أوله إلى آخره ، إذ أن دولة الأيوبيين ظهرت على مسرح التاريخ وليدة الشعور بالخطر الصليبي . وكانت حياتهم عسكرية صرفة . وتتغير الحياة في عهد المماليك فلا هي عسكرية صرفة ولا مدنية خالصة . فبينما نرى أن هؤلاء المماليك يصدون غارات الصليبيين والمغول ،

---

(١) انظر / د محمد جمال الدين سرور " دولة الظاهر بيبرس في مصر ص ٥٢ – دار الفكر العربي ١٩٦٠ .

ويقومون بفتوحات عديدة نراهم تنعموا بمظاهر الأبهة . واختلف العلماء في تصنيف الفئات التي يتكون منها المجتمع زمن المماليك فمنهم من قسم الفئات الإجتماعية الأساسية في العصر المملوكي إلى خمس فئات . أولى هذه الفئات المماليك الذين كانوا يقفون على رأس السلم الإجتماعي وسمتهم المصادر أرباب السيوف ، ثم فئة كبار موظفي الدولة من غير العسكريين وسمتهم المصادر أرباب الأقلام ويشكل العلماء الفئة الثالثة الإجتماعية في العصر المملوكي الأول وتأتي التجارة في المرتبة الرابعة ، ثم سائر الناس وهم العامة .

أما ابن خلدون فيقسم المجتمع إلى قسمين: سلطان ورعية[1] وسنتعرض للحديث عن أهم الفئات الإجتماعية :-

١ - السلطان :

متى تمت السلطة لأحد الأمراء وصار سلطانا على البلاد أصبح بيده الأمر والنهي والحل، وصار مصدر السلطات ، السلطان وولي الأمر الشرعي وهو الذي يعين ويعزل ويرقي ويفرق الإقطاع ويقرر الحرب ويفرض الضرائب وينفق المال على مرافق البلاد ويشتري المماليك للدولة وينفق عليهم ويربيهم ويعدهم للحراسة والقتال وإلى غير ذلك من المهام فهو محور الدولة وعليه مدارها[2] وتشبه سلطات السلطان في الدولة المملوكية سلطات الخليفة في العصور السابقة . وصفوة القول كله أن السلطان هو كل شيء في تنظيم دولة المماليك[3] .

---

(١) انظر / مقدمة ابن خلدون ص ١٦٨ - دار الفكر .

(٢) انظر د / عبد المنعم ماجد " دولة سلاطين المماليك ورسومهم ودراسة شاملة للنظم السياسية . مكتبة الانجلو المصرية .

(٣) انظر / د . محمود رزق سليم : عصر سلاطين المماليك جـ ٤ ص ٢٨٩ القاهرة ١٩٦٠ .

حفل توليتـــــــه :

بعد استقرار الرأى على أن يتولى أمير معين أمر السلطنة يقام له حفـــــل تولية ومبايعة يجتمع فيه الخليفة وقضاة الشرع الأربعة وسائر الأمراء ويكتب تقليد السلطان للسلطنة ويتلى فى الحفل على لسان الخليفة العباسى يوليه فيه شئون المسلمين . ويتقدم الخليفة نحو السلطان فيبايعه ويعهد إليه ثم يليه قضـــاة الشرع فالأمـــراء ويلبسونه بعد ذلك شعار السلطنة وهو عمامة سوداء لهـــــا عزبة مذهبة وجبة ســوداء وسيف ثمـين ذو حمائل ويجلسونه فى الرست[(1)] وكانت القلعة محل إقامة السلطان وبها دواوينه ، وقصره وما يتبعه من أبنية وإدارات ومن أهم الدواوين . ديوان الأحباس وتشبه وزارة الأوقاف وديوان النـــــظر ويشبه وزارة المالية . وديوان الخاص وديوان الإنشاء ، الغلال وديـــــوان المرتجعات (التركات)[(2)]

حفل الإستقبـــــــال :

عرف سلاطين المماليك الأعراف الدبلوماسية السائدة فى عصرنا من إقامـــة مراسم الإستقبال فى المناسبات عند حفاوتهم بضيف كبير ، وكانت تراعى فيهـــا تقاليد وأوضاع مقررة ويرسل السلطان عادةً إلى القادم من يلقاه فى طريقه ويهدى له منزلا مناسباً لإقامته ويعين له من يقوم بحراسته وخدمته .

---

(١) الرست : وهو العرش فى أيامنا هذه ورست السلطنه هو كرسى العـــرش والرست أيضا بمعنى الديوان (بيبرس المذهور والتحفة المملوكيـــة) ص ٢٧ (الدار المصرية اللبنانية ط ١ القاهرة .

(٢) انظر شحاته عيسى ابراهيم " القاهرة تاريخها ونشأتها " ص ١٥٧ - دار الهـــلال .

الجلوس إلى القضـــاء :

وأراد سلاطين المماليك أن يتشبهوا بالسلف في تفقد أحوال الرعيــة والنظر في المظالم فجلسوا في مجلس القضاء للفصل في الشكايات والخصومات واصطحبوا معهم قضاة الشرع . وكان جلوس سلاطين المماليك في مجلس القضاء من العادات الحميدة ولم تطرد هذه العادة فيها فمنهم من هجرها جملـة ومنهم من لم يواظب على هذه العادة باستمرار . ومن الذين جلسوا للقضـاء نجد الظاهر بيبرس والأشرف خليل بن قلاوون ، والناصر بن قلاوون وتقـدم الشكاوى والمظالم على اختلاف أنواعها إلى السلطان حين ذلك يستشـير فيها قضاة الشرع فيحكم بما يراه ولا يخرج عن رأيهم[1]

٢ - الـــوزراء :

الوزارة كلمة فارسية الأصل فهي ليست من مستحدثات الإسلام[2] فقـد ورد ذكرها في القرآن الكريم على لسان موسى إذ يقول " وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي[3] " .

---

(١) انظر المرجع السابق جـ ٤ ص ٢٩١ : ٢٩٣

(٢) انظر د / سلمان محمد الطماوي " نظم الحكم والادارة " ص ٤٦٧ .

(٣) سوره طــه آية ٢٩ : ٣١ .

واتخذ بيبرس وزيرا له[1] ، كان يستشيره في أمور الدولة كما كان وسيطـا بينه وبين الرعية وكان عليه تنفيذ أوامر السلطان ، وإعطاء النصح والإرشاد له إذا ما استأنس برأيه في أمر من أمور الدولة غير أنه لم يكن يتمتع بكامل سلطته لقيام النائب مقام السلطان أثناء غيابه[2]. وظلت الوزارة قائمة في ذلك العصر حتى ولي الناصر محمد بن قلاوون سلطنة مصر فلم يتخذ له وزيرا واعتمد على نواب له في إدارة شئون البلاد وكانت رتبته تلي رتبة الوزراء يعاونه في عمله كثير من الموظفين يعرفون بالمستوفين ولهؤلاء رئيس يسمى (مئوف الصحن) وكانت مهمته اعداد المراسم الخاصة بتنظيم شئون الدولة[3].

---

١ ـ الوزير : هو المتحدث الملك في أمر مملكته واختلف اشتقاقه فقيل مشتق والـوزر بفتح الواو والزيـن وهو الملجأ ، ومنها قوله تعالى " كلا لا وزر " سمـي بذلك لأن الرعية يلجأون اليه في حوائجهـم وقيل مشتق من الأوزار وهـي الأمتعة ، ومنها قوله تعالى " ولكن حملنا أوزارا من زينة القوم " سمي بذلك لأنه متقلد بخزائن الملك وأمتعته وقيل مشتق من الوزر بكسر الواو واسكـان الزين وهو الثقل ومنه قوله تعالى " حتى تضع الحرب أوزارها " وسمي بذلك لأنه يتحمل أثقال الملك وقيل مشتق من الأرز وهو الظهر وسمي بذلك لأن الملك يقوى لوزيره لقوة البدن بالظهر (القلقشنـدى " صبح الأعشـى " جـ ٥ ص ٤٤٨ ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٧ .

٢ ـ انظر د . محمد جمال الدين سرور " دولة الظاهر بيبرس " ص ١٢٣ .

٣ ـ انظر المقريزى " للخـطط " جـ ٢ ص ٣٣٤ دار الفكر المصرية ١٩٦٠ .

ويدل ذلك على أن سلاطين المماليك لم يتخذوا لهم وزراء يعاونوهم في إدارة شئون الدولة كما كانت الحال في عهد الدولتين الفاطمية والأيوبية فأضعفوا أولاً من نفوذهم ثم استبدلوا بهم كبار الموظفين فأصبح كل من ناظر الدولة وناظر الخاص حتى يقوم بمهام الوزارة ولعلهم عمدوا إلى ذلك خشية أن يزداد نفوذ الوزراء فيعملون على تقوية سلطتهم وخلعهم من عروشهم كما كانت الحال في أواخر الدولتين العباسية والفاطمية .

٣ - الأمراء وكبار موظفي الدولة :

الأمراء هم قادة الجند وهم الفئة التالية للسلطان في الحكم والمنفذة لأمور الدولة ويغلب أن يكون الأمير مملوكي الأصل مربى في طباق القلعة تربية عسكرية فصار جنديا ثم رفعت به مهارته وجده إلى صفوف الإمارة ويتولى الأمراء أهم مناصب الدولة ولا سيما العسكرية منها وهم في الغالب أربع طبقات :-

١ - أمراء المائة :

المقدمون وتلك أرفع المراتب ويختار من هذا الصنف كبار الموظفين مثل نائب السلطنة الأتابكي(١) : وهو أول من أسس الترك المماليك هذه السنة الملك المعز حيث رتب مملوكه الأمير سيف الدين قطز المعزي في نيابة سلطانه وكانت سنة حسنة(٢) وكانت نيابة السلطنة كما يستدل من منطوقها

(١) الأتابك : هو القائد العام لجيوش الدولة وأتابك لفظ تركي مركب من كلمة " أطا " بمعنى أب وكلمة بك بمعنى السيد أو الأمير فيكون الأتابك هو السيد الأب أو الأمير الأب أي أب الأمراء .

(٢) انظر بيبرس المنصوري " التحفة المملوكية " ص ٣٢ - تحقيق د / عبد الحميد صالح حمدان - القاهرة ١٩٨٧ .

أكبر الوظائف في الدولة المملوكيـــة ويقوم متوليها مقام السلطنـــة في غيبتـــه[1] .

٢ - **أمراء الأربعـين :**

وهم أقل مرتبـــة .

٣ - **أمراء العشــرة :**

٤ - **أمراء الخمســة :**

وأهم وظائفهم نائب الإقليم أو قلعة دمشـق والإسكندرية وحلب أو أميـر مجلس ويشرف على الأطباء ومن آل إليهم وأمير سلاح وهو رئيس رجـال السلاح من مماليك السلطان ويوكل إليه الإشراف على السلاح وإعـداده وأمير آخور وينظر في الإسطبلات السلطانية وما تحتاج إليه من طعـام وشراب وخدم وغير ذلك والدوادار يبلغ رسائل السلطان وتقدم إليـه المظالم والبريد مع كاتب السـر والجاشنكـير[2] يتولى الإشراف علـى

(١) الخطيب الجوهري " نزهة النفوس والابدان في تواريخ الزمان " هامـش ص ٤٧ .

(٢) الجاشنكير : هو الذى يتصدى لزوم المأكول والمشروب قبل السلطـان أو الامير خوفا من أن يدس فيه سـم أو نحوه وهو مركب من لفظيـة فارسيته : أحدهما جاشنا بجيم في أوله قريبة من الشين معنـاه الذوق ولذلك يقولون في الذى يذوق الطعام أو الشراب الشيئـى والثاني كير وهو بمعنى التعاطر لذلك فيكون المعنى الذى يروق . انظر القلقشـندى " صبح الأعشـى " جـ ٥ ص ٤٦ .

الخزائن السلطانية والأطعمة والموائد ووالى القاهرة وهو من الوظائف الهامة التى ظهرت فى هذا العصر وهى تقابل ما يعرف بالعصر الإسلامى الأول بالشرطة ومهمة صاحبها حفظ النظام والقبض على الجناة والمفسدين وما إلى ذلك من الأعمال الإدارية التى تكفل سلامة الجمهور[1] .

الجيـــــش :

اهتم أرباب السيوف اهتماما بالغا بالجيش ويعد بيبرس أول من نظم جيوش المماليك تنظيما تاما ولا عجب . فقد كان قائداً محنكاً ظهرت كفاءته فى موقعة المنصورة التى دارت بينه وبين الصليبيين وكان جيش المماليك يتألف من ثلاث طوائف :-

جنود نظامية تنفق عليها الدولة ومماليك السلطان وهم عصب الجيش وقوته العاملة[2] وكانوا يجلبون من الخارج رقيقا ويربون تربية عسكرية فى أبراج القلعة. واهتم السلاطين بهم حتى أصبحوا ذا ثروة كبيرة ونفوذ عظيم . أما الطائفة الثالثة فهم مماليك الأمراء وكانوا يحرسونهم وقد حافظ المماليك على صبغتهم الحربية حتى بعد ضغط نفوذهم وقد كان جيش المماليك من أقوى الجيوش عددا وقوة . بحيث تغلب على أكبر جيوش الأرض كالصليبيين والمغول .

---

(١) انظر محمد جمال الدين سرور " دولة الظاهر بيبرس ص ١٣٦ دار الفكر العربى ١٩٦٠ .

(٢) انظر / محمود رزق سليم " عصر سلاطين المماليك " جـ ٤ ص ٣٠٢ طبعة النهضة ١٩٨٢ .

٤ - العلمـــــــــاء :

عرفت بطبقة المعلمين أو أهل العمامة وكانت تشمل أرباب الوظائف الديوانية والفقهاء والعلماء والأدباء والكتاب وامتازت هذه الفئة بميزات معينة فكان بعض السلاطين يقومون للعلماء ويجلسونهم إلى جوارهم إلى جانب إغراق المنـــح والمرتبات الشهرية على أرباب الوظائف المعممين . واعتز المعممون بمكانتهـــم في عصر سلاطين المماليك فلجأوا أحيانا إلى معارضة السلاطين في الحـــق وكان لرأيهم قوة حقيقية يخضع لها السلطان .

٥ - أهل الذمـــــة :

حرص السلاطين والأمراء على التزامهم العدالة تجاه غير المسلمين عمـــلا بتعاليم الدين الإسلامي وفي الحقيقة أن أبناء الأقليات الدينية سواء من اليهود أو المسيحين قد مارسوا كل المهن والحرف التي مارسها المسلمون ومن ناحيـة أخرى فإن الوثائق تشير بوضوح إلى أنّ اليهود والنصارى قد تملكوا العقارات في شتى أنحاء البلاد إمّا عن طريق البيع والشراء وإمّا عن طريق الوراثة . كمـا تدل الوثائق على أنّ اليهود والنصارى كانوا يتعاملون مع المسلمين في عمليات البيع والشراء في حرية تامة في ظل القــرائن الحاكمة آنذاك[1] . ورغم ذلك اشتهر أهل الذمة في ذلك العصر بميولهم وتواطئهم مع التتار ضد المسلمين مما جعل الملك الظاهر بيبرس والذي اشتهر بالعدل والأخلاق الحميدة أن يعاملهـــم

---

١ - انظر د . / علي ابراهيم حسن " تاريخ المماليك البحرية " ص ٩٤٩ - مكتبـــة النهضة ١٩٨٠ .

كانوا

معاملة تنطوى على العطف والرعاية بسبب ما كان يقومون به من المناوشات والفتن فقد حدث أن كثر الحريق بالقاهرة أثناء اشتغال بيبرس بفتح أرسوف سنة ٦٦٣ هـ وأشيع أن النصارى هم الذين أشعلوا هذه النيران فلما عاد بيبرس إلى مصر أنكر عليهم هذه الأمور التى تفسخ عهدهم ثم أمر بإحراقهم فشفع فيهم الأمير حارس الدين أقطاى أتابك العساكر على أن يلتزموا بدفع قيمة ما أحرق وأن يقدموا لبيت المال خمسين ألف دينار فى كل عام فأطلق صراحهم وتولى بطريقهم دفع الأموال المطلوبة والتعهد بألا يعودوا إلى فعل شىء من المنكرات وألا يخرجوا عما هو مقدر لأهل الذمة (١) وكان الناصر أكثر عطفا على النصارى ممن سبقه من سلاطين المماليك حتى أنه أمر بإعادة كل من طرد منهم إلى وظيفته ومنع عنهم الأذى فتمتعوا فى عهده بالهدوء والطمأنينة وراحة البال اللهم إلا إذا استثنينا بعض حوادث عارضة كانت تؤدى إلى تغير السلطان والعامة مما جعل الملك الناصر محمد بن قلاوون يشترط على النصارى أن تميز عمائمهم باللون الأزرق واليهود بالعمائم الصغيرة فتميزت كل ملة بعلامة معينة وقد كان مرسوم الملك الناصر بتمييز عمائم أهل الذمة له ما يبرره فى ذلك الوقت فقد حدث أن بذل أهل الذمة مالا لتكون عمائمهم لون عمائم المسلمين . فعرض ذلك الأمر على مجلس العلماء فسكت أهل المجلس وقام الشيخ ابن تيمية وتكلم كلاما عظيما (٢) ورفض أن تكون عمائم أهل الذمة بلون عمائم المسلمين وذلك يجعلنا نتساءل لماذا شدد ابن تيمية فى أن يكون

---

(١) انظر / د . جمال الدين سرور " دولة الظاهر بيبرس " ص ١٥٣ - دار الفكر العربى ١٩٦٠ .

(٢) انظر السيوطى : حسن المحاضرة جـ ٢ ص ١٧٩ مطبعة الموسوعات.

لأهل الذمة عمائم مسبغة على غير لون عمائم المسلمين مع أنه المسلم الصادق الذى يعرف أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم أوجب الرفق بهم كما أنّ ابن تيمية لما استنقذ الأسرى من التتار لم يفرق بين أسرى الذميين ؟ ولعل ماحمل ابن تيمية على التشدد للتميز باللباس هو ما كان يخشاه من عيون النصارى الباقين من الحملة الصليبية ، وأن يكون بعض الذميين عيونا لهم[1] . فشدد فى أن يتميزوا تميزاً مبيناً ، لكى لا يبث من يميلوا إلى الصليبيين سمومه فى الجماعة الإسلامية وخلاصة القول أنّ الموقف الرسمى لسلاطين المماليك تجاه رعاياهم لغير المسلمين من خلال الوثائق الكثيرة التى خلفها لنا ذلك العصر[2] فقد صدرت المراسيم من السلاطين وكبار الأمراء طوال عصر المماليك التى تحفظ لأهل الذمة حقوقهم ومصالحهم .

٧ - المصريون :

كان المماليك يعيشون عيشة الترف بينما المصريون على العكس من ذلك لا عمل لهم إلا زراعة الأرض ودفع الضرائب وكانوا يقومون فوق ذلك بصنع الملابس المملوكية الفاخرة وبناء عمائرهم ، غير أنّهم على الرغم من ذلك لم يحرموا من بعض المناصب الحكومية فكان يسند إليهم الوظائف الدينية والقضاء[3] وقد تأرجح وضع المصريين بين اليسر والرخاء أحيانا وبين الفقر أحيانا أخرى .

---

(١) انظر / د . محمد محمد أبو زهرة (ابن تيمية " حياته وآراؤه الفقهية " ص ٦٣ دار الفكر العربى .

(٢) للاطلاع على تلك الوثائق راجع قاسم عبده " أهل الذمة فى مصر " ص ٤٤ .

(٣) انظر د . محمد جمال الدين سرور " دولة الظاهر بيبرس " ص ١٠٣ - دار الفكر العربى ١٩٦٠ .

٨ - الوافـــــــدية :

كذلك كان بالقاهرة جالية من التتار قدموا إلى مصر في أوائل عهد الملك الظاهر بيبرس واتخذوا الإسلام دينا لهم وأقاموا في دور بنيت لهم في أراضي اللوق [1] . وكانوا موضع عناية السلطان وكان من أثر هذه المعاملة الحسنة التي عامل بها بيبرس هؤلاء التتار أن كثر عدد الوافدين منهم وتزايدت بذلك العمائر في اللوق والجهات التي حوله . وهكذا كان لكل فئة أو طبقة اجتماعية دور على مسرح الأحداث في العصر المملوكي .

---

(١) اللوق : كانت تطلق في عهدهم على الجهات التي تعرف اليوم بباب اللوق (المرجع السابق) ص ١٥٢ .

الفصل الثالث

الحركة العلمية فى العصر المملوكى

" الفصل الثالث "

" الحركة العلمية في العصر المملوكي "

قامت في عهد المماليك حركة علمية لا بأس بها فكان ذلك العصر زاخراً بالعلم كثر فيه العلماء المدون كثرة سهلت الطلب والتحصيل ولا غرابة فقد كانت العلوم كثيرة جدا وتحصيلها عظيم وعكوف الناس عليها كان كثيراً[1].

ففي هذه الفترة من الزمن - أي بعد سقوط بغداد كانت مصر محكومة لدولتي المماليك البحرية والبرجية ويحدثنا التاريخ عما كان عليه هؤلاء السلاطين من حب للعلم وتقدير للعلماء ومن أجل ذلك شيدوا الجامعات والمدارس الحديثة واستقدموا في هذه الفترة العلماء من الأقطار البعيدة وصرفوا الأموال الطائلة على تلك المؤسسات الدينية والعلمية وهاهي آثارهم الخالدة ماثلة البنيان ، تحدث عما كان عليه القوم من عناية بعلوم الشريعة والسنة . ولم يقف الأمر عند حد المعاونة بالمال أو السلطان ، بل لقد جلس السلاطين في حلبة الدروس مع المتعلمين وتتلمذوا على أيدي العلماء وأئمة الحديث[2]

ولقد صارت مصر قبلة المسلمين في ذلك الوقت وكان طبيعيا أن ينتقل مركز الثقافة الإسلامية من بغداد إلى القاهرة ، التي لم ترتد إليها جحافل المغول

---

(١) انظر د ./ محمد دياب " محاضرات في تاريخ الدعوة الاسلامية " ص ١٦ ، اسيوط .

(٢) انظر د ./ محمد محمد أبو زهرة " الحديث والمحدثون " ص ٤٣٦ ، دار الفكر العربي .

وأسرابهم[1] وذلك بعد نقل الخلافة إلى مصر في عصر الظاهر بيبرس ٦٥٨ هـ/ ١٢٦٥م ولقد كان للمماليك نظام متكامل للتعليم فقد كانت الدراسة تمر بمراحل متعددة أولها التعليم في المكاتب وثانيها التعليم في المدارس وقد تتطلب كل نوع من التعليم أنواعا مختلفة من المؤسسات التعليمية .

أولا : التعليم في المكاتب :

تدور مناهج التعليم في المكاتب حول القراءة والكتابة وتعليم القرآن والحديث وآداب الدين فضلا عن مبادئ الحساب وقواعد اللغة وبعض الشعر .

ويبدأ الأطفال بالكتابة في الألواح ثم ينتقلون بعد ذلك إلى الكتابة بالمداد وكانت الدراسة بالمكاتب العامة قاصرة على الأيتام فكان إذا بلغ الطفل الحلم زالت عنه صفة اليتم وصرف من المكتب ليحل محله مستحق آخر وقد عرفت مصر في تلك الفترة نوعين من المكاتب مكاتب خاصة بأجر ومكاتب عامة تقتصر على الأيتام والفقراء وقد عرف المماليك النظم التربوية في التعليم واهتموا بها اهتماما عظيما فأوصى المؤدب[2] بأن يحسن معاملة الأطفال ولا يقسو

---

(١) انظر شحاتة ابراهيم عيسى " القاهرة تاريخها ونشأتها " ص ١٧١ ، دار الهلال .

(٢) المؤدب : هو الذي يقوم بتعليم الاطفال في المكاتب ويطلق عليه احيانا اسم المعلم او الفقيه (عبد الغني محمود ، الحركة الفكرية في مصر ص ١٢٨ ، دار المعارف .

الأدب

عليهم ولا يضربهم ، إلا إذا أساء أحدهم للأدب أو قام بعمل خارج عن قانون الشرع وفي هذه الحالة يجب على المؤدب ألا يضرب صبيا بعصا غليظة تكسر العظم ولا رقيقة تؤلم الجسد بل تكون وسطا واشترط في المؤدب عدة شروط منها " أن يكون صحيح العقيدة "[(1)] حسن السيرة ، محمود السمعة ، وقدموا للمتعلم الحوافز المادية والمعنوية المشجعة للطلاب على طلب العلم فإذا أتم الولد حفظ القرآن في المكتب احتفل به احتفالا عظيما يسمى " بالإصرافة " فتتزين أرض المكتب وحيطانه وسقوفه بالحرير ويزين الصبي ويسير في موكب حافل بالبهجة والسرور ، وهكذا يظهر لنا مدى اعتزاز المماليك بالقرآن الكريم والشريعة الإسلامية وبعد حصول الطفل على الإصرافة ، والإلمام ببعض بديهيات العلوم يصبح مهيئا لتلقي مرحلة أعلى من المكاتب .

ثانيا : التعليم في المدارس : مطلوب نبذة مختصرة لنشوء ذلك

كانت المدارس في العصر المملوكي بمثابة كليات عالية بلغت درجة فائقة في التنظيم العلمي والإداري وروعي في تصميمها الأغراض التعليمية وعدد المذاهب ومساكن الطلبة والمعيدين وكذلك ألحقت بكل مدرسة مكتبة عظيمة . أما العلوم الأساسية التي كانت تدرس في هذه المدارس ارتبطت

---

(١) انظر د./ علي السيد علي " القدس في العصر المملوكي " ص ١٥٨ دار الفكر للدراسات والنشر .

بأصول الدين كالفقه والحديث والتفسير ، أو العلوم اللغوية كالنحو والصرف والبيان ، فضلا عن الدراسات العقلية كالفلسفة والمنطق ، أو العلوم العملية كالفلك والكيمياء والطب واهتم كذلك سلاطين المماليك بالمدرسين إذ كانت وظيفة التدريس جليلة القدر يخلع السلطان على صاحبها في كثير من الأحيان بهدايا ويكتب له توقيع عن ديوان الإنشاء يختلف باختلاف المادة التي يدرسها المدرسون إن كانت تفسيرا أو حديثا أو غير ذلك ، ولم تقتصر مهمة المدرس على مجرد الإلقاء والتلقين والشرح بل كان عليه أن يسهل على الطلبة الفهم ويحثهم على الإشتغال بالعلم الشريف بل يدربهم ويأخذهم بالأهون فالأهون ، إلى أن ينتهوا إلى درجة التحقيق وإن كانوا منتهين فلا يلقي عليهم الواجبات بل يدخل بهم في مشكلات الفقه ويخوض بهم عبابه الزاخر "[1] ، وإذا كان المدرس هو الأستاذ الذي يقوم بتدريس مادة معينة يخصص فيها فإن المعيد كان يساعده بإعادة وإلقاء الدرس على الطلبة بشرح الصعب .

وكان المعيد يتبع استشارة أستاذه ويتبعه في المذهب ومادة التخصص ويواظب على حضور دروسه أما بالنسبة لاختيار مواد الدراسة ارتبط بشروط إنشاء المدرسة ووقفها وكثيرا ما اعتمد هذا الإختيار على مكانة المدرس وشهرته العلمية حتى قيل إن ابن حجر وهو من كبار فقهاء القرن التاسع الهجري

---

(١) انظر د / على السيد على "القدس في العصر المملوكي" ص ١٦٩ ، دار الفكر للدراسات والنشر .

كان يجتمع حوله بضعة آلاف من المستمعين والمستميلين ، وألحقت بكل مدرسة مكتبة يرجع إليها المدرسون والطلبة وتعددت الأغراض في استخدام المدارس في غير التعليم واستخدمت مقراً للقضاة ونواب دار العدل للفصل في القضايا وكان ذلك مع بداية الدولة المملوكية وشيد المماليك مدارس عديدة خدمت العلم والعلماء وأنفقوا عليها الأموال بسخاء حتى كانت موضع افتخار واعتزاز المماليك إذ جمعت بين الفن المعماري الرائع والتنظيم الحديث ونجوم لامعة في العلم تخرج على أيديهم علماء لهم شأن عظيم ومن أشهر هذه المدارس :-

١ - **المدرسة الظاهرية القديمة :-**

وعرفت بالقديمة تمييزا لها عن المدرسة الظاهرية الجديدة فالأولى منسوبة إلى الملك الظاهر بيبرس البندقداري ، بناها عام ٦٦١هـ ، ورتب لتدريس الشافعية بها تقي الدين بن رزين ، ولتدريس الحنفية محي الدين عبد الرحمن بن الكمال بن العديمي ، ولتدريس الحديث الحافظ الحافظ شرف الدين الدمياطي ، ولتدريس القراءات كمال الدين القرمي ، وألحق بها خزانة كتب عظيمة "[١].

---

(١) د/ عبد اللطيف حمزة (الحركة الفكرية في مصر) ص ١٦٤ ، دار الفكر العربي ١٣٦٥ هـ .

٢ - المدرسة المنصورية :-

نسبةً إلى الملك المنصور قلاوون بناها عام ٦٧٩ هـ ورتب فيها دروسا للفقه على المذاهب الأربعة والحديث والتفسير ودروسا كذلك في الطب .

٣ - المدرسة الناصرية :-

نسبة إلى الناصر محمد بن قلاوون وكانت مدرسة عظيمة عين بها المدرسون للمذاهب الأربعة وألحقت بها مكتبة حافلة وتحمس لبنائها وبناء المارستان والحق أن الملك الناصر بن قلاوون كان من أعظم سلاطين المماليك شغفا بالعمارة حتى أن المؤرخين عجبوا لهذا التهافت الذى بدأ من الملك الناصر على البناء والعمارة حتى أن ابن اياس قال عنه " ولا يعلم لأحد من الملوك آثار مثله "(1) .

٤ - مدرسة السلطان حسن :-

نسبة إلى السلطان حسن بن الناصر محمد بن قلاوون وقيل عنها إنها لا يعرف منذ ميلاد الإسلام مدرسة من مدارس المسلمين تحاكي هذه المدرسة في كبر قالبها وحسن هندامها وضخامة شكلها وقد تجاوزت العمارة فيها

---

(١) ابن اياس " بدائع الزهور في وقائع الدهور " ١/ ١٧٣ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٤م .

ثلاث سنوات لا تتوقف يوماً واحداً وقال الدكتور كمال الدين سامح عنها إنَّها من أجمل الآثار الإسلامية في مدينة القاهرة إذ أن مبانيها تجمع بين قوة البناء وعظمته ودقة الزخارف وجمالها "[1] وقد قدر السلطان حسن للمدارس الفقهية الأربعة مدرسين ، ومراقبين وخصص لها مرتبات ، وألحقت بها مساكن للطلبة[2] .

٥ - المدرسة الظاهرية الجديدة :-

فرغ من بنائها عام ٧٨٨ هـ فأقبل الشعراء على السلطان الملك الظاهر يهنئونه بها وعين السلطان فيها مدرسين للفقه على المذاهب الأربعة والحديث والقراءات فلم يكن منهم من أحد إلا متقدما في فنه او مجال تخصصه ، وعين بالمدرسة سراج الدين البلقيني مدرسا للتفسير وكفاها به فخرا[3] .

ثالثا : المساجد :-

تعتبر المساجد أقدم مظاهر التعليم التي وجدت في مصر خاصة قبل ظهور المدرسة كمؤسسة تعليمية ولم يقلل ظهور المدارس وانتشارها من

---

(١) د /كمال الدين سامح " في العمارة الاسلامية " ص ٧١ ، القاهرة .
(٢) المرجع السابق ص ٧٣ .
(٣) د ./ عبد اللطيف حمزة ، " الحركة الفكرية في مصر " ص ١٦٥ ، دار الفكر العربي ١٣٦٥ هـ .

شأن المساجد . إذ استمر المسجد هو أفضل أماكن التدريس لكثرة المنتفعين بالعلم في المساجد وعدم اختصاصها بفئة معينة دون أخرى . فقد تأثر التدريس بالمساجد بعض الشيء وواجه فترة من الركود النسبي في العصر الأيوبي نظرا لاهتمام الأيوبيين بإنشاء العديد من المدارس التي انتقلت إليها قيادة الحياة التعليمية في تلك الفترة وبالتالي تدفق عليها المدرسون والطلبة نظراً لما يصرف فيها من المرتبات النقدية والعينية بالإضافة إلى السكن المجاني في كثير من المدارس حتى جاء المماليك فأعادوا للمسجد مكانته العلمية ولم يكن ذلك يعني تقصير المماليك في توفير متطلبات الحركة التعليمية للمدارس وإنما إيمانهم بأهمية التعليم في المسجد ودوره العظيم حتى صارت في ذلك العصر المدارس نوعا من المساجد بل أنّ المساجد التي أقيمت أساساً للعبادة أعطى فيها بعض الدروس ورتب لها الطلبة والمدرسون كتلك التي وجدت بالجامع الخضري والجامع الباسطي ، فأصبحت المدرسة والخانقاة[1] والمسجد الجامع مبنى واحد يقوم بهذه الأغراض مجتمعة ويتضح ذلك في معظم المنشآت في عصر المماليك . كما كان في المدرسة البارقوقية إذ أنها كانت مسجدا وجامعا وخانقاة ومدرسة[2] .

---

(١) الخانقاة : الخانقاة او الخانكاه " كلمة فارسية معناها دار الصوفية يتعبدون فيها " انظر كمال الدين سامح " العمارة في الاسلام ص ٦٩ دار المعارف .

(٢) انظر د . / عبد الغني محمود " التعليم في مصر زمن الايوبيين والمماليك ص ١٨٧ .

مظاهر ازدهار الحركة العلمية في (العصر المملوكي) :-

١ - نبوغ علماء (العصر المملوكي) وكثرة مؤلفاتهم :-

يزدان عصر المماليك في مصر وسوريا بنخبة من الفحول والعلماء في مختلف الميادين بحيث يصعب أن ينافسهم عصر آخر [١] ، وذكر ابن خلدون عند حضور مصر " ومازلت ونحن بالمغرب نسمع أنه ظهر بمصر عالم بالعربية يقال له ابن هشام ألف ديوانا أستوفى فيه أحكام الإعراب مجملة ومفصلة " [٢] وقيل إنه عندما توفي جلال الدين السيوطي صليت عليه صلاة الغائب بالجامع الأموى كما كانت بعض مؤلفات علماء مصر من الذين اشتغلوا بالتدريس يرسل الملوك والسلاطين من البلاد الإسلامية لطلبها [٣] وهي فترة من أحفل الفترات التاريخية بالعلماء وأزخرها بالمدارس [٤] ومما يدل على نبوغ هؤلاء العلماء ازدياد المؤلفات في هذا العصر . فقد كثرت كثرة مزهلة ونهضت نهضة بعيدة المدى . حتى أنه كان ينسب للواحد من علماء هذا العصر مئات من الكتب والرسائل فقد قيل إن مؤلفات جلال الدين السيوطي زادت على ستمائة كتاب وابن تيمية زادت مؤلفاته عن خمسمائة كتاب وابن حجر العسقلاني تجاوزت مؤلفاته نحو مائة وخمسين وخلافه كثير [٥] .

---

(١) انظر د . /احمد شلبي ، موسوعة التاريخ الارسلامي ٥/ ٢٧٢ مكتبة النهضة (١٩٩٠-١٩٩١م) .

(٢) انظر ابن خلدون " المقدمة ص ٥٤٧ دار المعارف .

(٣) انظر/ د . عبدالغني محمود " التعليم في مصر زمن الايوبيين والمماليك دار المعارف ص ٢٧٤ .

(٤) انظر/د .علي السيد علي " القدس في العصر المملوكي ص ١٤٣ ، دار الفكر للدراسات والنشر .

(٥) انظر/د .محمد كامل الفقي :الادب في العصر المملوكي ص ٥٣ : ٥٥ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٦م .

٢ - الآثار الإسلامية :-

" يعتبر عصر المماليك العصر الذهبي في تاريخ العمارة الإسلامية في مصر فقد زادت الرغبة في تشييد عدد كبير من الأبنية من جوامع ومدارس وأضرحة وحمامات ووكالات وأسبلة كما ذاع بناء المدافن الكبيرة في عصر المماليك ، ولعل أبدعها مدفن وخانقاة برقوق ومدفن قايتباي ، ومدفن برسباي بصحراء المماليك "(١) وتلك الآثار تدل على الإزدهار العلمي لذلك العصر . وذلك يجعلنا نبحث على أهم الأسباب التي ساعدت على ازدهار ونشاط الحركة العلمية في ذلك العصر وهي :-

١ - انتشار المكتبات :-

كانت المكتبات بمثابة مدارس للتعليم في شتى العصور الإسلامية ومؤسسات ينفق عليها السلاطين والأمراء والأثرياء والعلماء لينتشر العلم بين الناس خصوصا في زمن لم تكن فيه الطباعة متوفرة(٢) ، فقد كانت محور النشاط التعليمي ومركزاً لتحصيل العلم بالبحث والدراسة في الكتب نفسها والنقل مما تحويه من مادة علمية(٣) سليمة .

---

(١) د . كمال الدين سامح : في العمارة الاسلامية ص ٦٣ ، القاهرة .
(٢) انظر د . علي سالم النباهين : نظام التربية الاسلامية في عصر دولة المماليك في مصر ص ٢٧٦ ، دار الفكر العربي .
(٣) انظر / د . علي السيد "القدس في العصر المملوكي ص ١٦٩ ، دار الفكر للدراسات والنشر .

٢ - هجوم التتار الشرس على العالم الإسلامي :-

عندما دخل هولاكو وجنوده بغداد في الثالث عشر من فبراير ١٢٥٨م وارتكبوا فيها الجرائم من سلب ونهب وقتل دام أربعين يوما كاملا فتكوا فيها بثمانمائة ألف وهلك في هذه المذبحة الشاملة الآلاف من العلماء والطلاب والشعراء . ونهبت ودمرت في أسبوع واحد المكاتب والكنوز التي تضافرت في جمعها قرونا طويلة وذهبت مئات الآلاف من المجلدات طعمة للنيران[١] فزاد في حماسهم الخراب الذي كاد التتار أن يصيبوا به بلادهم وعلماءهم . كما أصابوا به من قبل البلاد الإسلامية الأخرى فكان ذلك البلاء حافزا على تدوين الكتب وحفظها خشية من ضياع التراث الإسلامي .

٣ - الأوقاف ودورها في خدمة الحركة التعليمية :-

لقد كان للأوقاف دور هام بالنسبة للتعليم سواء كان بالمدارس أو بالمكاتب التي عرفت باسم كتاب السبيل والأوقاف هي التي دعمت نظام المدارس في العصر المملوكي فكان الريع الذي تغله الأعيان الموقوفة على المدرسة شهريا أو سنويا ، نقداً أو عيناً هو ضمان استمرار العمل بالمدرسة حيث تدفع منه مرتبات أرباب الوظائف بالمدرسة والطلبة حسب شروط الوقف ويدون الأوقاف

---

(١) انظر / أول دورانت " قصة الحضارة - عصر الايمان " ٢ / ٣٨٠ ، تحقيق دور دويتا كرانولسكي ٧٠٠هـ - ٧٤٩هـ / ١٣٠١-١٣٤٩م

كان لا يمكن أن تقوم للمدرسة قائمة في ذلك العصر[١] ولم يقتصر أثر الأوقاف على التعليم في كونها المورد المالي للمؤسسة التعليمية سواء كانت مدرسة أو مكتباً لتعليم الأيتام ، بل حرص الواقفون في ذلك العصر على أن يلحقوا بكل مدرسة خزانة كتب يرجع إليها المدرسون والطلاب ، ولا سيما الفقراء منهم مثال ذلك مانصت عليه وثيقة وقف السلطان الغوري " وبها خلوة كبرى معدة لخزن الكتب بها جنبات خشب نقي يمنى ويسرى وصدرا مثبتة معدة لحفظ مافيها من كتب العلم الشريف . الموقوفة على طلبة العلم الشريف لانتفاعهم بها في المدرسة المذكورة "[٢] : وبلغ من عناية الواقفين بأمر تعليم الأيتام أنهم لم يكتفوا بإنشاء المكاتب وترتيب المؤدبين والعمال وتوفير الطعام والكساء فضلا عن مرتب شهري للأيتام وفوق كل ذلك حرص الواقفون على توفير أدوات الكتابة[٣] ، وهكذا كانت الأوقاف ركنا ركيناً وأساس التعليم بمراحله المختلفة في العصر المملوكي وقد هيأت للعلماء ولطلبة العلم كل متطلبات الحياة التعليمية .

٣ - تعظيم سلاطين المماليك لأهل العلم :-

اهتم سلاطين المماليك اهتماما بالغا بالعلم والعلماء فشيدوا المدارس والمساجد والخانقات وزودوها بكل مستلزمات الدراسة العلمية . واهتموا

---

(١) انظر /د . محمد محمد امين : الاوقاف والحياة الاجتماعية في مصر ص ٢٤٠ ، الاوقاف دار النهضة العربية ١٩٨٠م ، القاهرة .

(٢) المرجع السابق ص ٢٥٥ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٧٥ .

بالعلماء وأجزلوا لهم العطاء وقدموا لهم الإحترام والتكريم وقد روى أن الظاهر برقوق كان إذا قدم عليه عالم انتصب قائما على قدميه ومشى له خطوات ولمـــا افتتح مدرسته كان يجلس مستمعا لدروس العلامة علاء الدين السرامي واشتهـر الأشرف الغوري بمجالسه العلمية [1] . وهكذا فإن تلك العوامل تشابكـــت وتكاتفت فكانت بمثابة محرك قوي للعلماء . دفعهم لطلب المزيد من العلم .

---

(١) انظر / د . محمود رزق سليم : عصر سلاطين المماليك ٤/ ٢٩٦ ، القاهـــرة ١٩٦٠م .

الباب الثانى

المظاهر العامة للدعوة الاسلامية

فى العصر المملوكى

ويشتمل على أربعة فصول :

* الفصل الأول : دور سلاطين المماليك فى خدمة الدعوة الإسلامية
* الفصل الثانى : دور سلاطين المماليك فى الدفاع عن البلاد الإسلامية
* الفصل الثالث : الفتوحات الإسلامية فى العصر المملوكى وأثرها فى خدمة الدعوة الإسلامية
* الفصل الرابع : أبرز علماء العصر المملوكى وأثرهم فى نشر الدعوة الإسلامية

الفصل الأول

دور سلاطين المماليك

فى خدمة الدعوة الإسلامية

" الباب الثاني "

" المظاهر العامة للدعوة الإسلامية في العصر المملوكي "

" الفصل الأول "

" دور سلاطين المماليك في خدمة الدعوة الإسلامية "

اعتز المماليك بإسلامهم فلم يكن يربط بينهم رابطة صهر أو قرابة وإنما ربط بينهم الدين الإسلامي الحنيف ، حتى كان السلطان في العهد المملوكي يعرف باسم سلطان الإسلام والمسلمين . وسموا امبراطوريتهم بالمملكة الإسلامية[1] ، وبذل المماليك قصارى جهدهم في خدمة الدعوة الإسلامية من خلال حفاظهم على الجبهة الداخلية بحيث كانت جهود سلاطين المماليك ترتكز على محاربة الفساد ونشر الفضيلة والعدل ومحاولة بناء مجتمع إسلامي يكون عونا له في جهادهم مع أعداء الأمة الإسلامية . وأول من سعى في تحقيق ذلك السلطان الظاهر بيبرس الذي يعد بحق المؤسس الحقيقي لدولة المماليك الأتراك ولم يكن يدعو إلى شيء يفقده فقد كان رحمه الله كما قال ابن كثير :-

" كان شجاعا عالي الهمة بعيد الغور مقداماً جسوراً معتنياً بأمر السلطنة ، يشفق على الإسلام متحليا بالملك ، له قصد صالح في نصرة الإسلام وأهله "[2] .

---

(١) انظر/د . على ابراهيم حسن ، تاريخ المماليك البحرية ص٢٠١ ، ط/ النهضة المصرية ١٩٦٧م .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية جزء ١٣ ص ٢٧٥ ، دار الفكر العربي .

وسنتناول بالدراسة أهم الأعمال التي نرى أنها مفخرة لسلاطين المماليك ومساهمة إيجابية وفعالة في خدمة الدعوة الإسلامية .

أولاً : إحياء الخلافة العباسية :-

أحدث سقوط الخلافة العباسية على أيدي التتار رعبا للمسلمين في العالم الإسلامي ، وظل المسلمون بدون خليفة ثلاث سنوات حتى أحيا الظاهر بيبرس الخلافة العباسية سنة ٦٦٦ هجرية ، وإن كانت عادت شكلا فإنها كانت رمزا لوحدة المسلمين وفي الواقع أن الأمم الإسلامية كانت في هذا الوقت متعلقة بأهداب الخلافة ناظرة إلى الخليفة نظرة إكبار وإجلال[1] ، فقد كان للخلافة هيبة في نفوس الأعداء وحصن منيع للمسلمين سعوا إلى محاربته . حتى أن السير وليم موير جعلها من أعمال السلطان بيبرس المجيدة حيث قال " ومن جميل أعماله أنه أعاد الخلافة إلى العباسيين "[2] .

ثانيا : محاربة الفساد :-

بعد استقرار السلطة لتولي السلطان الظاهر بيبرس ، سعى سلاطين المماليك إلى بناء الدولة الإسلامية على أسس إسلامية صحيحة فبذلوا الجهود

---

(١) انظر د . / محمد جمال الدين سرور ، دولة الظاهر بيبرس ص ٦١ ، دار الفكر العربي ١٩٦٠م .

(٢) السير وليم موير : تاريخ دولة المماليك البحرية ص ٥٣ ، ترجمة محمود عابدين وسليم حسن ـ المعارف ـ القاهرة .

لمحاربة الفساد الذى دائما يكون العقبة فى الجهود الإصلاحية .

فكان الملك الظاهر بيبرس لا يرى شيئا من الفساد إلا سعى فى إزالتـه بجهده وطاقته . فحارب الخمور والإنحلال الخلقى فرسم بإراقة الخمـور وقضى على أماكن الفساد . فضيقوا على أهل المنكر وسلبوا جميع ما كان معهـم حتى يتزوجن[1] ، وكتب إلى جميع البلاد بذلك فضاقت بهم سبل العيش فـى عهده وقل عددهم واستراحت البلاد من مفاسدهم . ولم تكن قرارات الملـك الظاهر بمحاربة الفساد قرارات نظرية وإنما طبقت بصرامة من جانب قواتـه ولم يكتف بذلك بل كان يتفقد الرعية بنفسه متشبها بذلك بالخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم .

فقد ذكر المقريزى عن بيبرس " أنه نزل ذات مرة من قلعة الجبل بالليـل متنكراً . وطاف بالقاهرة ليعرف أحوال الناس ، فرأى بعض المقدمين قـد أمسك امرأة وعراها سروالها بيده . ولم يجسر أحد ينكر عليه فعاقبهـم السلطان بأن قطع أيدى جماعة من نواب الولاة والمقدمين ، والخفراء "[2] ، حتى قيل فى ذلك :-

ليس لإبليس عندنـا إربُ	فغير هذى البلاد مـأواه
حرمته الخمر والحشيش معاً	أعدمته ماءه ومرعـاه

---

(١) انظر المقريزى ، السلوك لمعرفة دول الملوك جزء (١) ص ٥٤٠ ، القاهـرة ١٩٧٠م .

(٢) المقريزى : السلوك ١/٥٤٠ ، القاهرة ١٩٧٠ .

وصار سلاطين المماليك من بعده على ذلك الضرب فكان للسلطان الناصر محمد بن قلاون دور بارز لمحاربة الفساد فقد رسم بإراقة الخمور ومنع من التظاهر بشيء من المنكرات ، ويبدو أنه في الفترة التي تلت سلطنة الظاهر بيبرس تسربت بعض مظاهر الإنحراف . ومن ثم فإن الناصر قلاون جعل محاربة هذه الإنحرافات[1] في الأولوية بالنسبة لإصلاحاته وشدد كل من الظاهر جقمق والملك المؤيد في الخمور وأمر بإحراق مايوجد في مظانها[2].

ولا شك أنهم لم يشددوا في إبطال هذه المنكرات إلا لإيمانهم بأن تلك المنكرات تورث الفقر والذل وتخمد الهمة وتضعف النفس ، إذ أن الخمر من أفحش الذنوب وأعظمها خطرا على المجتمع الإنساني كله لذلك حرمها الشارع وشدد في تحريمها وفي ذلك يقول الله تعالى: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ "[3] فوصف الله تعالى الخمر بأنه رجس أي قذر تنفر منه العقول السليمة وهو لفظ يدل على منتهى القبح والخبث[4] . وكذلك الحشيش حيث

---

(١) انظر/د . حامد غنيم ابو سعيد :الجبهة الاسلامية في عصر الحروب الصليبية ٣/ ٢٧٤ .

(٢) انظر ابن حجر العسقلاني ،التاريخ والمنهج التاريخي ص ٣٩٩ ، دار اقرأ ، ط/ ١٩٨٤م .

(٣) سورة المائدة آية رقم ٩٠ .

(٤) انظر عبد الرحمن الجزيري ، الفقه على المذاهب الاربعة حاشية ٥/ ١١ دار الفكر العربي .

زعم بعض الفساق أنّ الحشيش ليست محرمة ولكن كلمة العلماء اجتمعت على تحريم هذه المشروبات وغيرها من المخدرات المحدثة . وقد قال علماء الحنفية في ذلك " إن من قال بحل الحشيشة زنديق مبتدع "[1] ولذلك كان محاربة سلاطين المماليك لهذا الفساد عملاً جليلاً للدعوة الإسلامية .

ولعبت الحسبة[2] دوراً هاماً في محاربة الفساد فيذكر أنّ المحتسب في

---

(١) عبد الرحمن الجزيري ، الفقه على المذاهب الاربعة حاشية ٥/٢٨ ، دار الفكر العربي .

(٢) الحسبة : معناها في اللغة تدل على العد والحساب، ويقال احتسب بكذا اذا اكتفى بها ، واحتسب على فلان الامر ، انكره عليه .
واحتسب الاجر على الله : أدخره لديه
والحسبة اسم من الاحتساب والاحتساب يستعمل في فعل مايحتسب عند الله تعالى .
معناها في الاصطلاح : الحسبة عند الفقهاء امر بالمعروف اذا ظهر تركه ونهي عن المنكر اذا ظهر فعله . ودليل مشروعيتها وورد ايات كثيرة تدل على ذلك منها قوله تعالى " وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ "
سورة ال عمران آية ١٠٤ .
" وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ " سورة التوبة من الاية ٧١ .
انظر /د . عبد الكريم زيدان ، اصول الدعوة ص ١٧٤ ، مكتبة القدس .

العصر المملوكي كان بريق الخمور . وشغلت المرأة جانبا كبيرا من اهتمام الحسبة . فكان المحتسب يراقب المرأة وما ينبغي أن تكون عليه وما يحرم عليها فعله وارتداؤه . ومنع النساء من الجلوس على أبواب بيوتهن في طرقات الرجال وذلك العمل يتفق مع الشرع حيث إن الله تعالى يقول :
" وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ "[1] .

ولم تقتصر محاربة الفساد على الخمور والانحلال الخلقي فقط وإنما تعدى إلى محاربة الرشوة ذلك الوباء الذي يقضي على ثمرة العمل وكان للسلطان الناصر محمد بن قلاون دور فعال في محاربة الرشوة فعاقب[2] عليها فلا يتقلد المناصب إلا مستحقوها . وذلك نجده قد أخذ بقول الله تعالى " وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ "[3] .

وفي قوله " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ "[4] . وما رواه الترمذي بسنده عن عبد الله بن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لعن الله الراشي والمرتشي "[5] .

---

(١) سورة الاحزاب من الاية ٣٣ .

(٢) انظر عبد الرحمن الجبرتي ، تاريخ عجائب الاثار في التراجم والاخبار ص ٣٤٠ ، دار الجيل - بيروت .

(٣) سورة البقرة آية ١٨٨ .

(٤) سورة النساء من الاية ٢٩ .

(٥) فتح الباري بشرح صحيح البخاري جزء ١٥ ص ٣٨٢ .

فقال العلماء : الراشي هو الذى يعطى الرشوة والمرتشي هو الذى يأخذ الرشوة وإنما تلحق اللعنة الراشي إذا قصد بها أزية مسلم أو ينال بها مالا يستحق[1] .

ثالثا : محاربة البدع والفتن :-

يروج أصحاب الدعوات الهدامة البدع والفتن لتحقيق مأربهم وتقف تلك البدع عقبة فى طريق الدعوة الإسلامية . مالم تجد من يكشف قناعها ويوضح حقيقة أمرها . ورو جت البدع فى العصر المملوكى حتى أن ابن كثير يعتبر إبطال بدعة نصف شعبان من العجائب فيقول " ومن العجائب والغرائب التى لم يتفق مثلها . ولم يقع من نحو مائتى سنة أو أكثر ، أنه أبطل الوقيد بجامع دمشق فى ليلة النصف من شعبان "[2] وكان ما استقر فى ذهن العامة أن من أبطل ذلك سيموت فى نفس العام[3] فكان مرسوم السلطان الملك الناصر حسن بن الملك الناصر محمد بن قلاون بأبطالها فبطلت . وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على خطورة الأمر وسيطرت تلك البدع على عقول الناس فى ذلك الوقت . وانتشرت الفتن فى الأسواق والحمامات العامة واحتفالات النصارى بعيد الشهيد حيث يزعم النصارى أن لديهم تابوت فيه إصبع يزعمون أنه إصبع بعض شهدائهم وأن النيل لا يزيد مالم يرمى

---

(١) الذهبى ، الكبائر ص ١٤٣ ، مكتبة المتنبى .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية جزء ١٤ ص ٢٣٥ ، دار الفكر العربى .

(٣) نفس المرجع السابق .

فيه هذا التابوت ويحضر ذلك جمع كبير من النصارى ويمتلئ البر بالخيم والبحر بالمراكب المشحونة بالناس ويحدث في ذلك الفتن والمنكرات ولا يقتصر الأمر على مشاركة عامة المسلمين ذلك الإحتفال . وإنما شارك في الإحتفال الأمراء وعن تلك الفتن يحدثنا المقريزي " ولا يبقى صاحب غناء ولا لهو حتى يحضر ، وتتبرج زواني سائر البلاد ، ويباع في ذلك اليوم من الخمر بنحو مائة ألف درهم [(١)] ، ويزيد من خطورة الأمر أن العامة تعتقد أن زيادة النيل متوقفة على رمي هذا التابوت ، ولم يكن الأمر سهلا لإبطال تلك الفتن لولا شجاعة الأمير بيبرس الجاشنكير الذى كتب إلى جميع الولاة بالنداء ألا يخرج أحد إلى عمل عيد الشهيد فعظم ذلك على النصارى وسيروا إليه تاج بن سعيد لتمكنه من الأمير بيبرس . فأخذ يحذره من تأثير ذلك القرار على الخراج . فلم يلتفت إليه وصمم على إبطاله [(٢)] .

وكان عيد الشهيد بمصر مثل ما كان يفعله المصريون في كل ليلة عيد بإلقاء جارية حسناء في النيل [(٣)] ويزعمون أن النيل لا يزيد إلا بإلقاء تلك الجارية في النيل ، فبطل ذلك على يد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه وزالت تلك العادة السيئة عن أهل مصر ، وعرف سلاطين المماليك خطورة تلك الفتن على الدعوة الإسلامية ولذلك نجدهم ينكرون كل ما يؤدى إلى الفتنة .

---

(١) المقريزى ، السلوك ١ / ٢٤٠ ، القاهرة ١٩٧٠م .

(٢) المرجع السابق ص ٢٤٠ .

(٣) انظر ابن اياس ، بدائع الزهور في وقائع الدهور ١ / ٥٦٧ ، القاهرة ١٩٧٥م .

فقد حدث أن توقف النيل لمدة سبعة أيام في مدة حكم الملك المؤيد فنودي في الناس بصيام ثلاثة أيام ثم خرجوا إلى الصحراء يستسقون وحضر السلطان والقضاة والمشايخ وكثر الجمع جدا وجلس السلطان على الأرض وصلى بهم القاضي ركعتين كهيئة صلاة العيد ثم رقا منبرا وضع له هناك فخطب خطبتين حث الناس فيهما على التوبة والاستغفار وحذرهم ونهاهم ثم تحول فوق المنبر والسلطان في ذلك يبكي وينتحب وقد باشر في سجوده التراب بجبهته. ثم ركب السلطان والعامة يحيط به فدعا له بعضهم بالنصر فقال سلوا الله فإنما أنا واحد منكم. ونودي في صباح ذلك اليوم بزيادة النيل اثني عشر ذراعا فاستبشر الناس بإجابة دعواهم ونودي مرة ثانية بزيادة النيل فاتفق أن السلطان سبح في النيل وهو في بيت كاتب السر الذي على شاطئ النيل فاستبشر الناس وقالوا إن ذلك ببركة السلطان فسمع ذلك وأنكره[1] عليهم وقال لو علمت بسباحتي يحدث ذلك ما سبحت لأن مثل ذلك تضل به العامة فهكذا كانت صفات الملك المؤيد شجاعا عالي الهمة كثير الرجوع إلى الحق محبا للشرع وأهله صحيح العقيدة[2] كثير التنظيم لأهل العلم والإكرام لهم وهو بذلك يدرك خطورة تلك الفتن على العامة خاصة. وقد عرف الشيخ علي محفوظ ذلك فقال "إنّ الأوهام مرض عام مكروبه منتشر في كل مكان إلا أن المتعلم العاقل يقوى عليه فيضعفه وغيره لا يقوى عليه فيصبح مرتعا له يسرح

---

(١) انظر ابن حجر العسقلاني ،التاريخ والمنهج التاريخي ٣/ ٢٢٠ ، دار اقرا ط / ١٩٨٤م.

(٢) المرجع السابق ٣/ ٢٣٧.

فيه ويمرح وأكثر أوهامهم في المسائل الدينية[1] فكان دورهم في محاربة ذلك حرصا منهم على اتباع الحق . فحاربوا البدع عملا بقوله تعالى" وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ "[2] فالصراط المستقيم هو سبيل الله الذى دعى إليه وهو السنة والسبل وهو سبل أهل الإختلاف الحائرين عن الصراط القويم وهم أهل البدع والأهواء[3] .عن عائشة - رضى الله عنها - قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم - " من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس فيه فهو رد[4]

رابعاً : القضاء على فرقة الحشاشين بسوريا :-

فرقة الحشاشين هى من أهم الجماعات التى نشرت الذعر فى كثير .

---

(١) على محفوظ الابداع فى مضار الابتداع ص ٤٤١ ، دار الاعتصام .
(٢) سورة الانعام الاية رقم ١٥٣ .
(٣) انظر / على محفوظ ، الابداع فى مضار الابتداع ص ٩٢ ، دار الاعتصام .
(٤) عمدة القارى" شرح صحيح البخارى ، الجزء الحادى عشر والثانى عشر ، ط / اولى ، مكتبة ومطبعة البابى الحلبى ص ١٩٣ .

من البلاد الإسلامية خاصة خلال عهد الأتراك السلاجقة [1] واشتهروا بالتآمر والغدر والقتل وزعيم الحشاشين هو الحسن بن الصباح وهو في الراجح فارس من طوس وأنه ادعى غير ذلك وقد درس في حياة مذهب الباطنية واعتنقها واحتل السلطان بيبرس حصونهم بسوريا سنة ١٢٧٢م ، فتشتت شملهم منذ ذلك الحين وبذلك تخلص المسلمون من " تلك الفرقة التي عبثت بالقيم والمبادئ واستد نشاطها في الدس والاغتيالات [2] حتى أصبحت خطرا جسيما على الإسلام والمسلمين " .

---

(١) السلاجقة أوال سنجوق : دولة تركية انشأت في عهد العباسيين اتو في الاصل من السهول الواقعة شمال بحر قزوين وهم ينتسبون الى سنجوق احد مقدميهم الذى أقرهم في القرن العاشر للميلاد في بخارى . حيث اسلموا ولقب حفيده طغرلبك سلطانا واستولى على خرسان وغيرها من الولايات الايرانية ، سنة ١٠٥٦م استولى على بغداد واستقر بها تابعا للخليفة ولقب امير الامراء ، وتوفى سنة ١٠٦٣ ميلادية وخلفه ابن اخيه ألب ارسلان وتوفى سنة ١٠٧٣ ميلادية وخلفه ابنه مالك شاه فجعل اصفهان عاصمة مملكته التي كانت تمتد من حدود الصين الى القسطنطينية وبعد وفاته سنة ١٠٩٣ اختلف اخيه وأولاده الاربعة على الخلافة فنشأت حروب أهلية نتج عنها انقسام الدولة السلجوقية بين اربعة افرع اهمها كان في بلاد فارس وانقرضت مملكته سنة ١٣٠٨م فاستولت الدولة العثمانية على اكثر بلادهم .

المرجع : بطرس البستاني ، دائرة المعارف ٩/٧١٦ .

(٢) د . / احمد شلبي ، موسوعة التاريخ الاسلامي ٥/٢٣٦ مكتبة النهضة ١٩٩٠م .

خامسا : الدعوة إلى الله بالسلوك وأعمال البر :-

إن الدعوة إلى الله بالسلوك والقدوة الحسنة أوقع أثرا وأعظم نفعا من الدعوة إلى الله بالكلمة وانتهج معظم سلاطين المماليك السلوك القويم . فبعد ل سلاطين المماليك لجأت إلى مصر طوائف التتار التى فرت من حكم قائدهم وقد اعتنقت هذه الطوائف الدين الإسلامى ورحب بهم سلاطين المماليك وعرفوا بالوافدين[1] . وقد ذكر أن الملك الناصر محمد بن قلاون أسقط جميع النقوش من أعمال المماليك المصرية والشامية وكان لا يقضى إلا بالحق .

وراك البلاد بالروك الناصرى[2] وكان يخير الشيخ (الحسن) بين الإقطاع والمراتب فيعطيه مايحتاجه وكان سبب صدور الروك الناصرى أن أصحاب بيبرس الجاشنكير وسلار وجماعة من البرجية كان تصيب الواحد منهم مابين ألف مثقال فى السنة إلى ثلثمائة مثقال وكان رحمه الله عادلا فمايذكر أنه كان إذا دخل جندى وتحدث عنه الأمراء بالبرج ليزيد له السلطان فى

---

(١) د . /احمد شلبى ، موسوعة التاريخ الاسلامى ٥/ ٢٤٠ مكتبة النهضة سنة ١٩٩٠ .

(٢) الروك الناصرى : الروك كلمة قبطية قد اصطلح على استعمالها القيام بعملية قياس الارض وحصرها فى سجلات وتنميتها اى تقدير درجة خصوبة تربتها لتقدير الخراج عليها ، ويقولون راك البلاد ويروكها اى فك زمامها ويقابل الروك فى الوقت الحاضر علينا فك الزمام راك البلاد المصرية وكتب بها مقالات سلطانية اى قوائم مساحية رسمية بما يخص كل واضع يد (انظر ابن تغرى : النجوم الزاهرة ٩/ ٤٢) .

إقطاعه[1] خالفهم السلطان وأعطاه مايستحق فقط مما أجبر الأمراء على السقوط . وشمل عدل الملك الناصر أهل الذمة فكان ذلك دافعا في دخول الكثير في الإسلام فلعل خير مايترجم عن بعده عن روح التعصب الزميم الذى كان سائدا في الشرق وفى الغرب على السواء ، فأوقع من اقتصاصة من رجل مسلم قتل مسيحى بغير حق وذلك أنه قدم بالقاهرة من دمشق رجل من أهل التصوف وقد رأى أثناء وجوده شخصا مسلما قد أقبل على نصرانى فقبل يده ويرجوه في أمر من الأمور . ولاحظ هذا الصوفى أن النصرانى منصرفا عن المسلم فآلمه ذلك أشد الألم وتقدم من النصرانى وقتله واجتمع الناس حول القاتل والقتيل أما المسلم الذى أثار هذه المشكلة فقد اختفى وقبضت الشرطة على القاتل ، ورفع أمره إلى السلطان فأمر بضرب عنقه[2] على باب القلعة جزاء وفاقا لاعتدائه بغير حق على ذلك النصرانى . ولو نظرنا لتلك الواقعة ورجعنا بالحكم الشرعى في ذلك لرأينا أن الفقهاء اختلفوا في ذلك الأمر . وقال المالكية يقتل الأدنى صفة بالأعلى كزمى قتل مسلما أو كحر كتابى يقتل بعبد مسلم ، لأن الإسلام أعلى من الحرية ولا يقتل الأعلى بالأدنى كمسلم بكافر وكمسلم رقيق بالحر الكتابى .

---

(١) انظر ابن تغرى : النجوم الزاهرة ٩ / ١٩٨) .

(٢) انظر محمد عبد العزيز مرزوق : الناصر محمد بن قلاون ص ٢٩٢ ، المؤسسة المصرية العامة .

قال الشافعية والحنابلة ببطلان قتل المسلم بزمى .

أما الحنفية قالوا بقتل المسلم بالزمى لأن الله تعالى قال " الحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَىٰ بِالأُنثَىٰ "[1] وقالوا الزمى مع المسلم متساويان في الحرمة التي تكفى في القصاص وهى حرمة الدم الثابتة على التأبيد والمسلم كذلك وكلاهما قد صادق أهل دار الإسلام ، والذى يحقق ذلك أن المسلم تقطع يده بسرقة مال الزمى وهذا يدل على أن مال الذمى قد ساوى مال المسلم فدل على مساواته بدمه ، إذ المال إنما يحرم بحرمة مالكه[2] واحتجوا بما روى محمد بن الحسن عن إبراهيم رحمه الله تعالى " أن رجلاً من المسلمين قتل رجلاً من أهل الذمة ورفع ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال " أنا أحق من وفى بذمته ، ثم أمر به فقتل "[3] وقد أخذ الملك الناصر قلاون بالمذهب الحنفى حين حكم بقتل الرجل المسلم الذى قتل المسيحى بغير حق ويعتبر ذلك فى قمة العدل إذا ماقورن بالمجتمعات الغربية والشرقية على السواء فى عصره .

هذا إلى جانب تعدد أعمال البر فى العصر المملوكى فأقاموا التكايا : وهى مؤسسات عرفت فى هذا العصر يقدم فيها المأكولات للعاطلين[4] والأسبلة أمكنة للشراب عرفت بالسبل أقيمت لأبناء السبيل كما أقاموا المؤسسات الخيرية

---

(١) سورة البقرة من الاية رقم ١٧٨ .

(٢) انظر عبد الرحمن الجريزى ،الفقه على المذاهب الاربعة ص ٢٨٢ : ٢٨٥

(٣)

(٤) انظر/د . احمد شلبى ،موسوعة التاريخ الاسلامى ٥/ ٢٧٤ مكتبة النهضة ١٩٩٠ .

المختلفة عملا بقوله تعالى " وءات ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا "(1) فأقام الملك المنصور قلاون بيمارستان وعنه يقول السيد وليم موير " إن الذى جعل ألسنة الناس تلهج بالثناء عليه ، والإعتراف بحسن صنيعه هو ذلك البناء الضخم الذى شيده فى المدينة والذى يشمل بيمارستان ومدرسة تحتوى على قبة فيها قبره . وقد أعد فيه غرفا متسعة وفرشها بالأسرة للمرضى من الفقراء والأغنياء وعين فيه محاضرين وزودها بمعمل كيماوى بكل أنواع المعدات الطبية وعين فيها خمسين من القراء يتلون آيات الله ليلا ونهارا وفى ذلك يقول الله تعالى " وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا "(2) .

وأقام مدرسة وملجأ للأيتام(3) ، إلى جانب ذلك ظهرت الموائد الرمضانية ووجدت أوقاف على تكفين أموات الغرباء(4) بالقاهرة ومصر . وقد حدث أن اشتد الحال بالناس سنة ٦٦٢ هـ وعدمت الأقوات وضج الفقراء بالجوع وكان ذلك فى عهد الظاهر بيبرس فأحصاهم وكلف كل أمير بالإنفاق على عدد معين منهم وتولى هو بنفسه خمسمائة فقير(5) ، عملا بقوله تعالى " ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا "(6) فهكذا كان سلوك السلاطين المماليك عظيما للدعوة الإسلامية .

---

(1) سورة الاسراء اية ٢٦ . (2) سورة الاسراء اية ٨٢ .
(3) انظر وليم موير ، تاريخ دولة المماليك البحرية ص ٦١ .
(4) انظر ابن تغرى ، النجوم الزاهرة ٧ / ١٨٠ .
(5) انظر محمد جمال الدين سرور ، دولة الظاهر بيبرس ص ٧٢ ، دار الفكر العربى سنة ١٩٦٠م . (6) سورة الانسان اية ٨ .

سادسا : أعمار المساجد :-

للمسجد مكانة عظيمة في الإسلام فعماره هم صفوة خلق الله من الأنبياء والمرسلين وأتباعهم من عباده المؤمنين وقال الله سبحانه وتعالى عن عمار المساجد " إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ "[(1)] ووعد الله سبحانه وتعالى من بني لمهتما . في الأرض أى مسجدا لله تعالى بنى الله له بيتا في الجنة كما في حديث عثمان بن عفان رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول " من بنى لله مسجدا بنى الله له كهيئته في الجنة "[(٢)] واهتم سلاطين المماليك بإنشاء المؤسسات الدينية عامة والمساجد[(٣)] بصفة خاصة في محاولة لتقوية رباط الدين بين أبناء الأمة الإسلامية وحرصا منهم على إحياء الشعائر الإسلامية حتى قال عنها القلقشندى " إنها أكثر من أن تحصى وأعز من أن تستعصى "[(٤)] . وفي هذا المجال قامت الأوقاف بدور كبير من أجل تقديم المساجد والجوامع وتمكينها من أداء رسالتها ويمكن أن نقول إن قوة الشعور الديني التي وجدت في العصر المملوكي صحبها ازدهار الأوقاف وانتشارها[(٥)] . فأصبحت المساجد في العصر المملوكي مركزا للإشعاع الفكري والحضاري وذلك بأن السلاطين

---

(١) سورة التوبة آية ١٨ .

(٢) مسند الامام احمد بن حنبل ، المجلد الاول ، دار الفكر العربى ص٢٠

(٣) للمزيد عن مساجد العصر المملوكي راجع د . سعاد ماهر : مساجد مصر واوليائها الصالحون ٣ / ٤ ، القاهرة .

(٤) القلقشندى : صبح الاعشى ٣ / ٣٦٥ ، الهيئة المصرية .

(٥) انظر د . محمد محمد امين ، الاوقاف والحياة الاجتماعية فى مصر ص١٨١

والأمراء أوقفوا عليها الأموال والأراضي تشجيعا للعلم والعلماء وقد أدت المساجد رسالتها العلمية وأسهمت في نشر الإسلام واللغة العربية والثقافة الإسلامية[1].

وفي حديثنا عن دور المماليك في إعمار المساجد لابد أن نشير إلى الدور الرائد من سلاطين المماليك في إعادة الأزهر مجده.

استرداد الأزهر مكانته :-

ظل الأزهر محروما من إقامة صلاة الجمعة فيه ثمانية وتسعين عاما من سنة ٥٦٧ هـ حتى سنة ٦٦٥هـ / سنة ١١٧١ حتى سنة ١٢٦٧ ميلادية وقد استغرقت هذه السنوات حكم الدولة الأيوبية وزهاء سبع عشرة سنة من حكم دولة المماليك البحرية وعاش الأزهر طيلة هذه الفترة متخلفا عن مساجد القاهرة بعد أن كان المسجد الأول في الديار المصرية . والمسجد الرسمي للدولة في العصر الفاطمي[2] ويرجع ذلك إلى سياسة الأيوبيين التي كانت تهدف إلى محاربة التشيع وبما أن الأزهر كان بؤرة الإشعاع للمذهب الشيعي في العصر الفاطمي فقد أصطدم الأيوبيين بالأزهر كجامع وجامعة . إلا أن المماليك أحسنوا التصرف حينما حاربوا الفكر بالفكر فجعلوا الأزهر مركزا

---

(١) انظر د . فتحية النبراوي : تاريخ النظم الإسلامية ص ٢٧٥ .
(٢) انظر عبد العزيز محمد الشناوي : بحث في كتاب دراسات في الحضارة الاسلامية ص ٦٦ : ٦٨ .

للإشعاع الفكري والحضاري وقوة علمية تدافع عن المذهب السني وتنشره وأعيدت الخطبة في الجامع الأزهر في عهد بيبرس وقدمت الهبات وتوالت إمارتهم لعبناء فاجتذب الأزهر إليه صفوة من العلماء من أنحاء العالم الإسلامي وبذلك أعيد للأزهر مكانته وقد قال القلقشندي : "إن الجامع الأزهر قد أخذ منذ ذلك الوقت يتزايد أمره حتى صار أرفع الجوامع بالقاهرة قدرا "(1) .

سابعاً : إكرام العلماء والدعاة :-

اهتم سلاطين المماليك بالقائمين على أمور الدعوة الإسلامية فعينوا للمساجد دعاة ومؤذنين وعمالاً وأنزلوا لهم العطايا ورفعوا من شأنهم فتولوا المناصب الرفيعة في الدولة كالوزارة ونظارة بيت المال ونظارة الخاص وكتابة السر والقضاء .

ثامنا : تعظيم الأماكن المقدسة :-

عظم الله الأماكن المقدسة فعن أبي هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تشد الرحال الا الى ثلاثة مساجد مسجدي هذا والمسجد الحرام والمسجد الأقصى "(2) وجعل الله البيت الحرام محطة أنظار المسلمين فكل مسلمي

---

(1) القلقشندي : صبح الاعشى ٣/ ٣٦٤ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٧م .

(2) صحيح مسلم في شرح النووي - المجلد السابع جـ ٩ كتاب الحج باب فضل المسجد الثلاثة ص ١٦٧ .

العالم يتجهون إليه في صلواتهم " وَمِن حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ "[١] ويحجون إليه طلبا للإستغفار والرحمة فيقول الله تعالى " وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً "[٢] وفي قوله " وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ "[٣] .

وعظم المسجد الأقصى فكان مسرى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال سبحانه وتعالى " سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا "[٤] وأولى سلاطين المماليك الأماكن المقدسة اهتماما وتقديرا عظيما فبالغوا في احترام أمرائها وأهلها ففي سنة ٦٦٧ هـ قدم السلطان بيبرس إلى مكة المكرمة في الخامس من ذي القعدة وبقي كأحد الناس لا يحجبه أحد وغسل الكعبة الشريفة بيده. وحمل الماء على كتفه[٥] بالقربة ، وغسل البيت وجلس على باب الكعبة وأخذ بأيدي الناس . وسبل البيت الحرام للناس وعمر الحرم النبوي الشريف . ولم يكتف بيبرس بالعناية بالحرمين الشريفين بل أمر سنة ١٢٦١ بإرسال الصناع والآلات لعمارة قبة الصخرة بالقدس وجدد مسجد إبراهيم عليه السلام[٦] . وقد

---

(١) سورة البقرة من الاية رقم ١٤٩ .

(٢) سورة آل عمران من الاية رقم ٩٧ .

(٣) سورة الحج الاية رقم ٢٧ .

(٤) سورة الاسراء آية رقم ١ .

(٥) انظر العيني : عقد الجمان ٢/٤٦ .

(٦) د / احمد مختار العبادي : قيام دولة المماليك الاولى في مصر والشام ص ١٩٧ .

ذكر عنه الناصر محمد بن قلاون حج سنة ثماني عشرة وسبعمائة ووزع على فقراء مكة نحو عشرين ألف دينار وأبطل أشياء كثيرة من المكوس التي كانت بمكة ، ثم بعد ذلك توجه إلى المدينة الشريفة فدخلها ماشيا [1] على أقدامه وقيل في ذلك :ـ

دنوت تواضعا وعلوت مجدا	فشأناك انخفاض وارتفاع
فذاك الشمس تبعد إن تسامى	ويدنو الضوء منها والشعاع

وزار قبر النبي صلى الله عليه وسلم وهو مكشوف الرأس ثم وزع على فقراء المدينة عشرين الف دينار كما فعل بمكة ، واهتم ايضا بمعظم سلاطين المماليك بالأماكن المقدسة بما في ذلك بيت المقدس [2] ، واعتبر سلاطين المماليك إقليم الحجاز والأماكن المقدسة جزءا لا يتجزأ من مملكتهم الإسلامية وشعروا بالمسئولية تجاه رعاياها ويؤكد ذلك تلك الحادثة . فقد ذكر أن الملك الظاهر بيبرس بلغه أن الشريف محمد بن تمي بن سعيد حاكم مكة والمدينة المنورة وقع منه ظلم للتجار والحجاج والمارين والواردين إلى الحرمين الشريفين وتجاوز الأمور وخرج عن الحد فكتب إليه . أما بعد فالحسنة في

---

(١) انظر / ابن اياس : بدائع الزهور من وقائع الدهور جـ ١ القسم الاول ص ٤٤٩ تحقيق محمد مصطفى : الهيئة المصرية للكتاب القاهرة ١٩٨٠ .

(٢) للمزيد عن اهتمام سلاطين المماليك ببيت المقدس ، راجع د . محمد سيد علي : القدس في العصر المملوكي تحت عنوان " الانجازات والمنشئات ذات الدلالة الدينية التي انشئت في العصر المملوكي لبيت المقدس ص ٢٧ : ٣١ .

نفسها حسنة وهي من بيت النبوة أحسن والسيئة في نفسها سيئة وهي من بيت النبوة أقبح . وقد بلغنا أيها السيد أنك بدلت حرم الله بعد الأمن بالخيفة وفعلت مايحمر الوجه ويسود الصحيفة . فكيف تفعل القبيح وجدك الحسن وتضيع الفروض ومن بينكم عرفت الفروض والسنن وتقاتل حيث لا تكون فتنة وأنت من أهل الكرم وساكن الحرم . فكيف آويت المجرم وأسفكت دم المحرم ومن يهن الله فماله من مكرم ، فإن لم تقف عند حدك أغمدنا فيك سيف جدك والسلام " فكتب إليه الجواب " أما بعد فالمملوك معترف بذنبه تائب إلى ربه . فإن أخذت فأنت الأقوى وأن تعفوا أقرب للتقوى[1] . فهكذا نعمت الأماكن المقدسة في العصر المملوكي بعناية خاصة وإن دل ذلك إنما يدل على تعظيم سلاطين المماليك للإسلام وزادهم ذلك احتراما من الرعية .

تاسعا : تربية النشيء من المماليك تربية إسلامية :-

يعتبر تربية النشيء من المماليك تربية إسلامية هي القاعدة التي انبثق منها العمل الإسلامي لخدمة الدعوة الإسلامية في ذلك العصر حيث كان لسلاطين مصر وقتئذ عناية بالمماليك من جميع الأجناس واحتفال زائد بتربيتهم وكانوا يسكنوهم القلعة في طباق مخصوصة ويسلم المملوك الصغير إلى معلم يعلمه القراءة والكتابة وكان لكل طائفة فقيه يعلمهم أمور الدين والآداب ، والقرآن . فإذا شب وقوى سلم المعلم يعلمه أنواع الحرب وفنون الفروسية وفي

---

(١) انظر/ محمد بن علي الاسحاقي : اخبار الاول فمن تصرف في مصر من ارباب الدول ص ١٤١ .

ذلك نظام تربوي بناء هادف لخدمة الإسلام والمسلمين . إذ أن القـــوة وحدها دون إيمان لا تكفي لبناء مجتمع إسلامي . فخضوع المملوك لتلك التربية الإسلامية هو ما جعلنا نجد في سلاطين المماليك النزعة الإيمانية . وفي ضوء ذلك يمكن تفسير الأحداث التاريخية في ذلك العصر . فنجد أن السلطـان سيف الدين قطز عندما وجد علامات القلقة لدى بعض الأمراء . خاطبهـم بروح الإسلام وأيقظ فيهم شعيرة الجهاد . فضجوا بالبكاء وبذلك قضى علـى الإنهزامية في صفوف جيشه . وما حدث أثناء إقدام سنقر الأشقر عندمـا تصارع على السلطة مع السلطان المنصور قلاوون وعزم على قتال الجيش المصري فوجه إليه قلاوون خطابا يذكره بمصلحة الأمة الإسلامية فعدل عن ذلـك ويفسر لنا تعدد أعمال البر في ذلك العصر . حتى أننا نجدهم حريصـين على نشر الفضيلة بين أفراد رعيتهم فقد ألزم الظاهر بيبرس رجال حاشيتـه[1] بأداء الصلوات في أوقاتها ليكونوا قادة الشعب في الأمور الدينية . كما هـم قادته في الشئون السياسية وكان هو مثلا أعلى في ذلك . حيث يذكر أنـه كان رحمه الله ملازما للصلوات الخمس في أوقاتها سفرا أو حضرا[2] . وذلـك لأنه يعلم جيدا أنها الصلة بينه وبين ربه ، ولأنها الماحية للذنوب .

---

(١) انظر/ د محمد جمال الدين سرور ، دولة الظاهر بيبرس ص ١٥٤ ، دار الفكر العربي ١٩٦٠م .

(٢) انظر / د حامد غنيم ابو سعيد : الجبهة الاسلامية في عصـر الحروب الصليبية ٣/ ٢٧٣ .

فحقا لقد تربوا في كل مدارس الحرب والسياسة ، فكانوا وهم صغار متضلعين بالعلوم ، والفلسفة ، والدين ، فضلا عن الفروسية واستعمال السلاح وبذلك كانوا حائزين [1] لجميع الصفات التي تؤهلهم لمركز القيادة وأنهم برعوا في الفنون الحربية ، بحيث كانوا سادة يديرون الممالك ، وقادة يجاهدون في سبيل الله ، وأهل سياسة يبالغون في إظهار الجميل .[2] .

---

(١) انظر / دراسة رشدي . مصر الشراكسة ص ١٣٨ ، القاهرة ١٩٤٨

(٢) د / عبد المنعم ماجد : طومان باي آخر سلاطين المماليك ص ٢٦ مكتبة الانجلوا المصرية ١٩٧٨م .

الفصل الثانى

دور سلاطين المماليك

فى الدفاع عن البلاد الإسلامية

الفصل الثانــي

" دور سلاطين المماليك في الدفاع عن البلاد الإسلامية "

زامن سقوط الدولة الأيوبية وانتقال السلطة من الدولة المملوكيـــة أن تعرض العالم الإسلامي لأخطار كثيرة هددت كيانه . وفي مقدمة هـــذه الأخطار في الشرق الأدنى يأتي خطر التتار . بالإضافة إلى الخطر الصليبي ، الذي كان موجودا من قبل ، فضلا عن الأخطار التي هددت دولة المماليك من جانب النوبة جنوبا والتركمان[1] شمالا وسنتناول بالدراسة الدور البطولـي لسلاطين المماليك من خلال جهادهم المتواصل ضد الأعداء المتربصـين بالأمة الإسلامية مسلطين الأضواء على الدور البارز لسلاطين المماليك فـــي إحياء شعيرة الجهاد . فكان لابد لهم من الإستعداد للعدو عملا بقـــول الله تعالى " وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُـــونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُـــوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ[2] "

تكوين جيش قـــوي :-

قامت الدولة المملوكية على نظام حربي فريد حيث يتلقى المملوك فنـــون الفروسية وهو في سن مبكرة بالطباق وهي بمثابة المدرسة الحربية في ذلك الوقت فضم الجيش المملوكي جنودا مدربة تدريبا عسكريا جيدا . فسار الجيـــش المملوكي في ذلك العصر من أقوى الجيوش عددا وقوة . بحيث تغلب علـــى أكبر جيوش الأرض كالصليبين والمغول ، حتى عرف الجيش المملوكي دائمـــا

---

(١) انظر : د . ابراهيم حسن سعيد : البحرية في عصر سلاطين المماليك ص ٥ دار المعرف ١٩٨٣ .

(٢) سورة الانفال ايـــة رقـم ٦٠ .

بالجيش أو الجيوش المنصورة فكان له دور بارز في جهاد هم المتواصل وكانت حياتهم سلسلة من حلقات الجهاد المتواصلة فكانوا بحق كما قال عنهم المؤرخون إنهم كانوا داوية الإسلام [(١)] . وإلى جانب الأخطار الخارجية كانت هناك أخطار داخلية . كانت توصف بالدولة الناشئة وهي الصراع على السلطة بين المماليك والأيوبية الذى جعل الملك الناصر يبدى التعاون مع التتار .

وفى ذلك بلاء عظيم . فكان لابد لهم من توحيد الجبهة الإسلامية حتى يتسنى لهم مواجهة الأعداء ومن الله على مصر بقائد عظيم هو السلطان سيف الدين قطز الذى استطاع أن يوحد صفوف الجنود ويخمد المنازعات عن السلطة وبذلك أصبحت الجبهة الإسلامية فى استعداد لمواجهة الأعداء .

أولاً : الجهاد ضد التتار :-

تعرضت الأمة الإسلامية لهجمات شرسة من قبل التتار وعن خطورة ذلك العدو يقول ابن الأثير " لقد بقيت عدة سنين معرضا عن ذكر هذه الحادثة استعظاما لها كارهاً لذكرها . فأنا أقدم رجلا وأؤخر أخرى فمن الذى يسهل عليه أن يكتب بعنى الإسلام والمسلمين ومن الذى يهون عليه ذكر ذلك ؟ فياليت أمي لم تلدني ، وياليتني مت قبل حدوثها وكنت نسياً منسياً . إلى أن حثني جماعة من الأصدقاء على تسطيرها وأنا متوقف ثم رأيت أن ترك ذلك لا يجزى نفعا فنقول هذا يتضمن ذكر الحادثة

---

(١) انظر د حامد غنيم ابو سعيد : الجبهه الاسلامية فى عصر الحروب الصليبين جـ ٣ ص ٣١ .

العظمى والمصيبة الكبرى التي عفت الأيام والليالي عن مثلها . عمت الخلائق وخاصة المسلمين فلو قال قائل : "إن العالم منذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم إلى الآن لم يبتلوا بمثلهم لكان صادقا . كأن التواريخ لم تضمن ما يقاربها وما يدانيها "[1] حيث دخلت جيوشهم بغداد تفتك بأهلها دون التفرقة بين صبي أو امرأة أو شيخ ، أما من بقي من القتل فقد أسر حتى بلغ عدد القتلى حوالي ثماني مائة ألف قتيل[2] . وسقطت الخلافة العباسية بقتل الخليفة العباسي على أيدي المغول .

بدايه الصراع بين المماليك والمغول :-

كان العدو المغولي[3] له أطماع توسعية في العالم بصفة عامة والعالم الإسلامي بصفة خاصة فبعد استيلائه على بغداد سعى للإستيلاء على مصر والشام . فأرسل هولاكو إلى الملك المظفر قطز خطابا مضمونة "إلى المظفر قطز الذي هو من جنس الترك الذين هربوا من سيوفهم . فإننا جند الله في أرضه ، خلقنا من سخطه فسلموا إلينا تسلموا من قبل أن تندموا

---

(١) أبن الأثير : الكامل في التاريخ جـ٩ص٣٢٦ دار الفكر بيروت .

(٢) أنظر د . حامد زيدان صفحة من تاريخ الخلافه العباسية في ظل دوله المماليك ص ١٤ .

(٣) المغولي : أو المغل قبيله من التتر كانت تقيم حول بحيره بتيغال (أو بكال) في جنوب سيبريا وتاريخهم القديم سقيم . لانهم لم يظهروا الا بظهور جنكيز كان في أوائل القرن السابع الهجري " جرجي زيدان تاريخ التمدن الاسلامي فـ جـ٤ ص١٣٨ .

وقد سمعتم بأننا أضرينا البلاد وقتلنا العباد . فلكم منا الهرب ولنا منكم الطلب . فمن طلب حربنا ندم ومن قصد أماننا سلم . فإن أنتم لأمرنا طعتم فلكم مالنا ولنا مالكم . وإن خالفتم هلكتم فلا تهلكوا أنفسكم بأيديكم ، فقد أعذر من أنذر فعجلوا بالجواب قبل أن تضرب الحرب بنارها .

وترميكم بشررها فلا بقي لنا مقصد سواكم . [1] والسلام " وكان الكتاب بصحبة أربعة رسل فلما سلم المظفر قطز الكتاب تغير تغيرات شديدة وأمر بتوسيط[2] الرسل الاربعة فوسطوا وأمر السلطان بجمع الأمراء وقادة الجيش وحثهم على القتال ورغبهم فيه .

وذكرهم بما لحق بالأقاليم الإسلامية التى اجتاحها المغول من القتل والنهب والدماء والحريق [3] . ودعاهم إلى نصرة الإسلام والجهاد فى سبيل الله دفاعا عن المسلمين وحرماتهم وخوفهم من عقاب الله إن هم ولوا الأدبار أمام عدوهم . فتأثروا بقوله وجدوا بالبكاء وتحالفوا على الإجتهاد فى قتال التتار .

---

(١) انظر القرمانى : تاريخ الاول واثار الاول ص ٩٨ ، عالم الكتب بيروت

(٢) التوسيط : هو أن يضرب الشخص بالسيف ضربة لقطعة نصفين ، وكان هذا النوع من الاعدام شائعا فى العصور الوسطى " مفترج الكروب جـ ٢ ص ٣٩٢ .

(٣) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٤٣٠ القاهرة ١٩٧٠ .

معركة عين جالـوت :-

شهدت(عين جالوت)التي تقع من بيسان ونابلس معركة من أخطـــر معارك التاريخ حيث التقى المسلمون بقيادة السلطان قطز مع التتار فــي ١٥ رمضان سنة ستمائة وثمانٍ وخمسين هجرية الموافق سنة ألف ومائتــين وستين ميلادية وأنتصر فيها المسلمون على أعدائهم ومزقوا شمل المغـــول كل ممزق وكان المغول خصماعنيداقويا حتى قبل أن كتبغا قائد الجيـــش المغولي تحول أثناء المعركة إلى قطعة من اللهب بسبب القصب . وقـــد أظهر المسلمون شجاعة منقطعة النظير . فكان ذلك الإنتصار ثمرة جهـــود مشتركة من القادة والأمراء والجنود .

ولعل خير دليل على ذلك حرص السلاطين على الجهاد في سبيـــل الله بأنفسهم فيذكر العيني عن السلطان سيف الدين قطز في موقعـــة عين جالوت أنه لما كان في المعركة قتل جواده ولم يجد أحداً في الساعـــة الراهنة من الوشاقية(1) فترجل وبقي كذلك واقفا على الأرض ، ثابتا في محـــل المعركة وموضع السلطنة من القلب ، فلما رآه بعض الأمراء ترجل عن فرســـه وطلب من السلطان الركوب ، فامتنع السلطان ورد قائلا " ما كنت لأحـــرم المسلمين نفعك ، ولم يزل كذلك حتى جاءت الوشاقية فركب ، فـــلام بعض الأمراء وقال يا قطـز لما لم تركب فرس فلان ؟ فلو كان رآك بعـــض الأمراء لقتلك . وهلك الإسلام بسببك فقال أما أنا فكنت أذهب إلى الجنـــة

---

(١) الوشاقية : الاوشقية او الاوحقية جمع أوشاق ."أوجاق : فرقة مـــن خدم السلطان عملها ركوب الخيل والتسيير والرياق صبحى الاعـــش جـ ٥ ص ٤٥٤ "

وأما الإسلام فله رب لايضيعه قد قتل فلان وفلان وعدد خلقا كثيرا من الملوك فلن يضيع الله الإسلام .[1]

نتائج معركة عين جالوت :-

١ - تبدو أهمية هذه المعركة على وجه الخصوص ، إذا ماتصورنا أنها جاءت بنتيجة عكسية وأنتصر فيها المغول ، إذ لسقط معقل للإسلام في فلسطين ومصر[2] ، خصوصا وأن قوى الشر الصليبية كانت تقف بالمرصاد للمسلمين وأبدت التحالف مع المغول في سبيل القضاء على الإسلام والمسلمين .

٢ - قضى هذا الإنتصار على الفكرة التى كانت سائدة عند الدولة المسيحية بأن الجيش المغولي جيش لا يقهر .

٣ - حفظت مصر وآثارها من الخراب الذى كان طبيعة النصر المغولي .

٤ - أعادت الوحدة بين مصر والشام[3] تحت حكم المماليك . وهى الوحدة التى زاق مرارها الصليبيون .

٥ - إعادة الثقة إلى نفوس المسلمين الذين أصبحوا يشكون فى وجود قوة على الأرض تستطيع مواجهة المغول . ولكن ماذا كان موقف السلطان سيف الدين قطز وهو منتصر على أقوى جيش فى العالم .

---

(١) أنظر العيني : عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان جـ ١ ص ٢٥٩ ، تحقيق محمد محمد أمين ـ الهيئة المصرية العامه لكتاب س ١٩٨٩ .

(٢) انظر / د . فؤاد عبد المعطى : المغولى فى التاريخ من جنكيز كان الى هولكو ص ٢٠٩ القاهرة ١٩٦٠ .

(٣) أنظر / د . أحمد شلبى موسوعة التاريخ الاسلامى جـ ٥ ص ٢٥٠ ، مكتبة النهضة س ١٩٩٠ .

هل نسب النصر إلى نفسه أو سعى في الأرض فسادا وتغطرسا . كـــلا إنما نجده بعد أن أصبحت هزيمة المغول أمرا مؤكدا قد نزل فرسه ومرغ وجهه على الأرض وقبلها وصلى ركعتين [1] شكرا لله تعالى عملا بقولـــه تعالى (لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ) [2]

مسيرة الجهاد ضد المغول بعد عين جالــــوت :-

واصل السلطان الظاهر بيبرس راية الجهاد بعد السلطان قطـــــز وكانت سياسته مع العدو واضحة،فقد وصله رسل أبغا معهـــم مكاتبــــات ومشافهات ، فمن جملة المشافهات أنت مملوك بعت بسيواس فكيف يسمـــح لك أن تخالف ملوك الأرض واعلم أنك لو صعدت إلى السماء أو هبطـــت إلى الأرض ما تخلصت منا فاأعمل لنفسك على وصالحه السلطان أبغا فلـــم يلتفت إلى ذلك ولا عده شيئا . بل أجاب عنه معلنا سياسته مع ذلك العـــدو بكلمة أضاءت سجل التاريخ وظلت شاهدة على عظمة سلاطين المماليك فــــى الدفاع عن البلاد الإسلامية . فقال لرسله " أعلموه أنى من ورائه بالمطالبـــة ولا أزال حتى أنتزع منه جميع البلاد التى أستحوذ عليها من بلاد الخليفـة ، وسائر أقطار الأرض [3] وترجم بيبرس ذلك الكلام إلى واقع ملموس . حيث تحطمـــت فى عهده أسطورة الشبح المغولى وأخذ الإسلام ينتشر بين هؤلاء الغـــزاة

---

(١) انظر / د . حامد غنيم ابو سعيد الجبهة الاسلاميه فى عصر الحروب الصليبين جـ ٣ ص ٢٧٠ .

(٢) سورة ابراهيـــم آيـــة (٧) .

(٣) انظر / من كثير البداية والنهاية جـ ٢ ١٣ ص ٢٥٤ دار الفكر العربـى .

وبالتالي استعادت الجبهة الإسلامية ثقتها في قدرتها على مواجهة التحديات بل وفرض إرادتها [1] على العدو .

موقعة حمص :-

وفي أثناء عهد السلطان الملك المنصور قلاون أخذت جيوش التتار تجتاح الحدود السورية ثانية مرتكبين نفس الفظائع التي ارتكبوها منذ عشرين عاما . وكان مما شجعهم على ذلك الخلاف الذي ساد في صفوف الأمراء المماليك . وطبقا لحسابات العدو المغولي القاصرة التي لا تدرك إلا المقاييس المادية اعتقدوا أن الصراع على السلطة بين سنقر الأشقر الذي خرج على طاعة الملك المنصور قلاون ونادى بنفسه سلطانا على دمشق . سيتفق معه على قتال الجيش المصري ولكن أمراء المماليك خاطبوه بروح الإسلام وقالوا له إن العدو داهمنا وماسببه إلا الخلاف الذي بيننا وما ينبغي هلاك الإسلام فتأثر وتراجع عن موقفه ومنع جنده من محاربة المصريين وقد ارتكب جيوش المغول جرائم لا تحصى فأحرقوا ما يجلب من جوامع ومدارس فتملك أهل دمشق الهلع والرعب وهاجر منهم خلق كثير إلى مصر والتقت جيوش المغول بجيوش السلطان قلاون الذي كانت تتكون من جنود مصر والشام وفريق كثير من الأكراد والتركمان حيث نودي في الجيش الأموي للجهاد فلبى النداء جموع كثيرة وحضر إلى ميادين القتال المسلمون من كل أرجاء الأرض . وكان اللقاء بالقرب من

---

(٢) أنظر / د . حامد غنيم أبو سعيد : الجبهه الاسلامية في عصر الحروب الصليبية جـ ١٣ ص ١٧١ .

حمص وكانت معركة شديدة وقاتل المماليك قتالاً مشرفاً وحملوا على جيش المغول حملة صادقة أنتهت بهزيمتهم هزيمة ساحقة . وقتل كثير منهم وكانت هزيمة المغول عند حمص لا تقل في أهميتها عن هزيمة عين جالوت سيما أن المغول كانوا في ذلك الوقت يراسلون البابا وملوك أوربا يطلبون التعجيل لإرسال حملة صليبية تقضى على سلطنة مصر .

ولتفادى هذه المؤامرة أبرم قلاون اتفاقا دفاعيا مع أمراء كشتالة وصقلية[1] فبهذه السياسة الحكيمة إلى جانب بطولتهم الرائعة في حمص استطاعوا كسر شوكة المغول .

وعاد المغول يهددون الدولة المملوكية من جديد في عهد برقوق[2] . فكان رد السلطان برقوق رداً عنيفاً وذلك يتضح لنا من رده على رسالة وصلته من ملك التتار وهذه مقتطفات من نص الخطاب بإنشاء ابن العمرى ونشحته بعد البعدين والإصدار " نحن خيولنا برقية وسهامنا يمانية وسيوفنا شديدة المضارب ذكرها في المشارق والمغارب . إن قتلناكم

---

(١) انظر / د . محمد رفعت ومحمد حسونه معالم تاريخ العصور الوسطى المطبعة الاميرن ببولاق .

(٢) برقوق : بن أبيض العثماني الجركسي اشتراه الاتابكي يلبغا العمرى ومات يلبغا وهو من صغار مماليكه وانما سمي برقوق لجحوظ عينيه وتنقلت به الاحوال أن صار أمير مائة مقدم وكان اتابكا الملك الصالح وليس للصالح سوى الاسم لصغر سنه وخلع الصالح وتولى هو مكانه في التاسع عشر من رمضان س ٧٨٤ هـ " القرماني اخبار الاول وآثار الاول ص ٣٠٨ .

فنعمة البضاعة وإن قتلنا فبيننا وبين الجنة ساعة[1] ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[2] وفي ذلك تصميم على مواصلة مسيرة الجهاد حتى النصر أو الشهادة .

ثانيا : الجهاد ضد الصليبيين :-

سنتحدث فيما بعد حديثا مفصلاً عن الجهاد المماليك ضد الصليبيين ونود أن نشير هنا في تلك الكلمة الموجزة أن انتصار المماليك في موقعة عين جالوت حقق لدولة سلاطين المماليك الناشئة مكانة لا يستهان بها في نفوس المعاصرين ، مادعم نفوذها[3] في بلاد الشام وألقى على أهلها مهمة إتمام ما قام به صلاح الدين الأيوبي . ونجح سلاطين المماليك في استرداد ما أغتصبه الصليبيون وقد كان في وسع المماليك أن يعجلوا بطرد الصليبين ، ولكن عاملا مهما أتاح لهم البقاء في الشام حوالي أربعين سنة بعد سقوط بيت المقدس[4] وذلك بسبب زحف العدو المغولي على العالم الإسلامي . فبعد هزيمة المغول في عين جالوت تحول المماليك إلى الصليبين وأهم سلاطين المماليك الذين كان لهم دور بارز في الجهاد ، ضد الصليبين السلطان الظاهر بيبرس وقلاوون والأشرف خليل بن قلاوون

---

(١) المرجع السابق القرماني ص ٣٠٨ .

(٢) سورة ال عمران ايسة ١٦٩ .

(٣) انظر د / على سيد على : القدس في العصر المملوكي ص ١٥٨ دار الفكر للدراسات والنشر .

(٤) انظر د / احمد شلبي : موسوعة التاريخ الاسلامي جـ ٥ ص ٧٨٥ ، مكتبة النهضة س ١٩٩٠ .

حيث استطاعوا أن يجلوا الصليبين من بلاد الشـام .

ثالثا : جهاد المماليك مع البقايا الصليبية في الشــرق :-

المماليك وأرمينيا الصغرى :-

كان العداء بين المماليك والأرمن في حقيقة أمره سلسلة من العداوات بين القوى الإسلامية والمسيحية زمن الحروب الصليبية نفسها . وطلب الظاهر بيبرس أن يكون نهر جيحون حدا بين المسلمين والأرمن وأن يسلم كـــل ما هو جنوبي نهر جيحون من الحصون والبلاد . فأجاب الأرمن وتسلـــم المسلمون جميع البلاد التي جنوبي نهر جيحون والمذكور ومنها حموص وتل حمدون وقويدى ومرعشى وغيرها . ولكن آلت أمور هذه البلاد إلى الأرمن عند دخول (قاذن) ملك التتار [1] .

فقاد حركة الجهاد السلطان المنصور قلاوون الذى هاجم إيــــاس في س ١٢٨٣ وأنزل الهزيمة بالأرمن عقب الهزائم المتلاحقة التي نزلـــت بهم على أيدى الأرمن وأبرمت معاهدة ودفع اللأرمن جزية سنوية فحــدث أن قطعوا تلك الجزية في عهد الأشرف خليل بطل عكا حتى بادر بإرســال رسالة إلى هيثم الثاني ملك أرمينيا يخبره بفتح عكا .

وطلب منه أن يعتبر بما حل بعكا وإلا ندم حيث لا ينفع الندم [2] . وعـزم

---

(١) انظر / بن الغدا : المختصر في أخبار البشر جـ ٤ ص ٢٧ .

(٢) انظر د / سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية صفحـــة مشرقة في تاريخ الجهاد الاسلامي في العصور الوسطى جـ ٢ ص ٢٦٢ مكتبة الانجلو المصرية ١٩٨٦ م .

على استعادة الأراضي التي نزلوا عنها للمماليك . وفي عهد الناصر محمد بن قلاوون أرسل حملة س ١٣٣٦ م وظلت هذه الحملة تعمل في الأراضي الارمنية حتى وافق الارمن على التنازل عن جزء كبير ومع ذلك لم تنقطع غزوات المغول في أرمينيا الصغرى بقية القرن الرابع عشر حتى استطاع الأشرف شعبان أن يقضي قضاء تاما على دولة أرمينيا [1] وبعد القضاء على أرمينيا أصبحت قبرص أهم المعاقل الصليبية وأقواها . حيث أصبحت ملجأً للشراذم الفارين الصليبيين كما أصبحت هذه الجزيرة ملجأً للقراصنة ولأعداء الإسلام وهاجمت سواحل مصر فزحف جند السلطان (بارسباي) وهاجموها واستولوا عليها س ٨٣٠ هـ - س ١٤٢٦ م وبقيت الجزيرة تحت حكم مصر تدفع الجزية [2] وحاول أهل جزير (رودس) مناصرة أهل قبرص ولكن تصدى لها السلطان جقمق وهاجمها ثلاث مرات مما أسكتها وبذلك نجد أن المماليك كان بمثابة الدماء الجديدة التي تتطلبها الجبهة الإسلامية في ذلك العصر . فكانوا مدافعين عن البلاد الإسلامية دفاعا عظيما حيث اشترك السلاطين في هذه المعارك وجاهدوا جنبا إلى جنب مع جنود فكانوا قدوة صالحة للعامة مما جعلهم يشاركون في تلك المعارك تطوعا وجهاداً في سبيل الله .

---

(١) المراجع السابق .
(٢) انظر د / أحمد شلبي : موسوعة التريخ الاسلامي جـ ٥ ص ٢٦٠ مكتبة النهضة س ١٩٩٠ .

الفصل الثالث

الفتوحات الإسلامية فى العصر المملوكى وأثرها فى خدمة الدعوة الإسلامية

" الفصل الثالث "

الفتوحات الإسلامية في العصر المملوكي وأثرها في خدمة الدعوة الإسلامية

تتصف دولة سلاطين المماليك في مصر والشام بأنها دولة حربية نشأت وترعرعت وليدة الحروب الكثيرة التي هددت منطقة الشرق الأدنى في العصور الوسطى واستخدمت هذه الدولة بقاعها ونظمها من ذلك الجهاد المسلح ضد الأعداء[(1)]. فقد تعرضت الأمة الإسلامية في ذلك الوقت لأخطار عديدة أهمها الخطر المغولي وقد سبق الحديث عنه في فصل لاحق والخطر الصليبي . حيث استولى الصليبيون على بلاد الشام وثغور دمياط وأقاموا مستعمرات لهم في قلب الدولة الإسلامية . وقد انشغل المماليك في الدفاع عن البلاد الإسلامية في بادئ عهدهم ضد المغول وما أن انكسرت شوكة المغول حتى تحولت راية الجهاد إلى العدو الصليبي وسنتناول بالدراسة أهم الفتوحات الإسلامية في عصر سلاطين المماليك وأثرها في الدعوة الإسلامية . فقد كانت حياة سلاطين المماليك مسخرة لخدمة الدعوة الإسلامية خلال حماية الدولة الإسلامية واستردادها ما اغتصبه الأعداء :

أولا : أهم الفتوحات الإسلامية في عهد الظاهر بيبرس :-

الملك الظاهر بيبرس البندقداري كان ملكا جليلا عظيما مشهورا بالشجاعة والإقدام[(2)] فتح قلعة البيرة، الكرك، والشوبك، وقيسارية وقلعة الهوى . وصفد وقلعة بانياس، ويافا، والشقيف، ومدينة إنطاكية، وسائر حصون الإسماعيلية، وحصن

---

(1) انظر د / محمود رزق سليم : عصر سلاطين المماليك جـ ٤ ص ٥ القاهرة ١٩٦٠ .

(2) القرماني : تاريخ الدول واثار الاول ص ١٩٩ .

الأكراد وحصن عكار وكنبول والصبيصة وتدل كثرة الفتوحات في عهد الظاهر بيبرس على علو خلقه وحبه للإسلام وأهله . فقد قال عنه صاحب كنز الدرر :

"إن بيبرس كان ملكا هاما شجاعا مقداما لا يرهب الموت كثير الحيل حسن السياسة ، جميل التدبير . ميمون الحروب مؤيد العزم"[1] وقال عنه أحد المؤرخين "إن عهد بيبرس كان كعهد الرشيد وصلاح الدين أحد عصور الإسلام الذهبية" وكان الظاهر بيبرس حريصا على نشر الدعوة الإسلامية من خلال فتوحاته فشيد المساجد وأقام بها الدعاة . وسنورد أهم الفتوحات في عهده .

١ - فتح قيسارية الشام :

نازلها الملك الظاهر بيبرس وحاصرها لمدة ستة أيام وفتحها في منتصف شهر جمادى الأولى ٦٦٣ هـ / ١٢٦٥ م واستولى عليها المسلمون وهرب الصليبيون وأسلموا القلعة[2] بما فيها وهي أول فتوح الملك الظاهر رحمه الله وكان فتح (قيسارية) على جانب كبير من الأهمية . فقد أخلى الفرنجة عن حصن منيع على الساحل الجنوبي لبلاد الشام وكان يهدد المواصلات الإسلامية بين مصر والشام[3] وبذلك استراح المسلمون من تهديد الفرنجة لتجارتهم .

---

(١) انظر ابن ايبك : كنز الدرر جـ ٨ ص ٢١٤ .

(٢) انظر / العيني : عقد الجمان جـ ١ ص ٣٦٧ - الهيئة المصرية العامة للكتاب ص ٨٩ .

(٣) انظر / طه التلجي : مملكة صفد في عهد المماليك ص ٤٦ .

٢ - فتـــح أرســـوف (١) :

نزل السلطان على أرسوف في مستهل جمادى الآخرة من نفس السنـــة واشتد هجوم المعسكر بالسهام والمجانيق وضيقوا عليهم . فما أحس الفرنـــج إلا أن خالطهم المسلمون . وكان فتحا مباركا فقد حضر في هذا الفتح جمـــع كبير من العباد والزهاد والفقهاء . ولم يعد فيها خمر ولا شيء من الفواحش فكانت النساء الصالحات يسقين الماء في وسط القتال (٢) وفي ذلك نفع عظـــيم للدعوة الإسلامية . حيث إن الدعوة إلى الله بالقدوة الحسنة أعظم شأناً فـــي نفس المدعوين من الكلمة . واشترك القائد (بيبرس) في هذا العمل بنفسه فقـــد سجل التاريخ لبيبرس أنه في أثناء الحصار الذي فرضه على أرسوف الصليبيـــة في سنة ٦٦٣هـ . كان ينقل الأحجار بنفسه ويمشي بمفرده في يده ترس تـــارة في السرب وتارة في الأبواب التي تفتح ليرمي (٣) العدو من فوق الستائر .

٣ - فتـــح صفـــد (٤) :

نزل الملك الظاهر بيبرس بجيشه على صفد في شعبان سنة ثلاث وستـــين

---

(١) ارسوف بالفتح ثم السكون ، وضم السين المهملة وسكون الواو . والفاء مدينة على ساحل بحر الشام بين قيسارية ويافا وكان بها خلعه مـــن المرابطين منهم أبو يحيى ذكريا بن ناقع الأرسوفي وغيره وهي فـــي الاقليم الثالث (ياقوت الحموى) جـ ١ ص ١٥١ : ١٥٢ .

(٢) المقريزي : السلوك جـ ١ ص ٥٩ القاهرة سنة ١٩٧٠ .

(٣) انظر د / حامد غنيم أبو سعيد : الجبهة الاسلامية في عصر الحروب الصليبية جـ ٣ ص ٢٧٢ .

(٤) صفـد : صفد بالتحريك ، والصفد : العطاء وكذلك الوثاق وهي من جبال لبنان (ياقوت الحموى) : معجم البلدان جـ ٣ ص ٤١٢ .

وستمائة حجرية ونقايقها بالزحف وآلات الحصار فسلموا الباشورة[1] واستولى عليها وفتحها في التاسع عشر من شعبان سنة ٦٦٣ هـ وعمر فيها جامعاً[2] وكان سلاطين المماليك يصطحبون مع الجنود الصالحين والعلماء وحضر قاضي قضاة الحنابلة بدمشق[3] ذلك الفتح . وسادت الروح الإسلامية واشترك العامة تطوعا في سبيل الله . وأحسنوا القتال مما سهل فتحها .

تعمير صفد :

تعرضت صفد إلى أضرار جسيمة خلال فترة الحصار التي انتهت بعودتها للحظيرة الإسلامية . فنظر الظاهر بيبرس إلى مستقبل تلك القلعة في رحلة جهاده ضد الصليبيين فكان موقعها الحصين دافعا له ليجعل منها قاعدة حصينة في المنطقة تشد أزره في صراعه مع الفرنجة[4] . ومركزاً تشن منه الهجمات على البلاد الخاضعة للصليبيين . ووصل السلطان لتعمير صفد في أواخر رجب سنة ٦٥٦ هـ . وفور وصوله قام بتقسيم عمارتها على الأمراء وأخذ نصيباً وافراً لنفسه ولمماليكه . وما أن فرغوا من العمارة حتى أمر بحفر خندق من

---

(١) الباشورة : هنا سد من التراب لمنع وصول الخيالة والرجالة والسهام الى مواضع المحاربين مع تجمع على بواشير الملوك : جـ ١ ص ١٥٠ .

(٢) انظر / العيني : عقد الجمان جـ ١ ص ٢٢ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب .

(٣) انظر / د حامد غنيم : الجبهة الاسلامية في عصر الحروب الصليبية جـ ٣ ص ٢٧٥ .

(٤) انظر : طه التلجي الطراونه . مملكة صفد في عهد المماليك ص ٥٢

حولها . شارك السلطان العمل فيه أيضا ويذكر المقريزى لنا دور(بيبرس)فـــي نشر الدعوة من خلال فتحه لصفد . فقد كتب على القلعه بعد فتحها مصـــورا إنجازاته في تلك القلعة " وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُـــونَ(1)" أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ(2)" .
وأمر بتجديد هذه القلعة وتحصينها وتكملة عمارتها وتحسينها وخلصها من أسر الفرنج الملاعيين ، وردها إلى أيدى المسلمين ، ونقلها من أخوة الكفـــر إلى أخوة المؤمنـــين وأعادها إلى الإيمان . كما بدأ بها أول مرة وجعلهـــا للكفار خسارة وحسرة واجتهد وجاهد حتى بدل الكفر بالإيمان والناقـــوس بالآذان والإنجيل بالقرآن ووقف بنفسه حتى حمل تراب خنادقها وحجارتهـــا(3) وفي ذلك وصف جامع الدور بيبرس في خدمة الدعوة الإسلامية من خلال فتوحاته .

٤ ـ حملات تأديبيـــة :

انطلاقا من قول الله تعالى " وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَـــابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُـــونَ(4)" توجه الملك الظاهر بيبرس من دمشق حيث التقى بجنوده العائدين من غزوة سيس . لما نزل على " قارا " بين دمشق وحمص . أمـــر بنهب أهلها وقتل كبارهم فنهبوا وقتل منهم جماعة جزاء وفاقا . واقتصاصا منهم

---

(١) سورة الأنبياء آية ١٠٥ .

(٢) سورة المجادلة من الآية رقم ٢٢ .

(٣) انظر المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٥٦٣ القاهرة سنة ١٩٧٠ .

(٤) سورة البقرة آية ١٧٩ .

لأنهم كانوا نصارى يسعون في الأرض فساداً ويسرقون الصبية المسلمين ويبيعونهم للفرنج[1] فكانت الحملة التأديبية إرهاباً وردعاً للعدو وتعظيما لحرمة الدم المسلم .

٥ - فتح إنطاكيـــــــة :

يروي المؤرخون أن بيبرس هاجم إنطاكية[2] بثلاث قوات إحداها بقيـــادة الأمير بدر الدين الخازندار . اتجهت إلى ميناء السويدية لتقطع الصلة بين إنطاكية والبحر والثانية بقيادة الأمير عز الدين بيغان وسدت الممرات بيـــن قليقية والشام . لمنع وصول إمدادات من أرمينيا الصغرى في حين أخذت القوة الرئيسية بقيادة بيبرس نفسه تجاه المدينة حيث التجأ إلى الخديعة ليبعـــد الأسطول الإنطاكي عن ميدان المعركة فهاجم طرابلس أولا فأسرع إلى نجدتها بوحمنـــد الثالث بأسطوله وفي هذه اللحظة رحل بيبرس عن طرابلس . وتمكـن بذلك من الإستيلاء على إنطاكية ٦٦٦ هـ / ١٢٩٨م[3] . فلم يكن يجـــازف سلاطين المماليك بقواتهم . وإنما برعوا في وضع الخطط العسكرية . ونجحـــوا في ذلك نجاحاً بارعاً . إلى جانب روح الجهاد التي كانت القوة الروحيـــة التي جعلتهم يحققون ذلك النجاح في فتوحاتهم .

---

(١) انظر / ابن الفداء : المختصر البشـــر ج ٤ ص ٤٠ .

(٢) انطاكية : بالفتح ثم بالسكون والياء مخففة بلد عظيم ذو سور عظـــيم وشكل البلد نصف دائرة قطرها يتصل بجبل ، والسور يصعد مـــع الجبل داخل السور قلعة مبنيه (معجم البلدان ج ١ ص ٢٦٧) .

(٣) انظر / د علي ابراهيم حسن : البحرية في عصر سلاطين المماليـــك ص ٢٥٣ النهضة المصرية ١٩٦٧ .

٦ - فتح حصن الأكراد وحصن عكار والقرين :

توجه الظاهر بيبرس من الديار المصرية إلى الشام . ونازل حصن الأكراد في التاسع من شعبان سنة ٦٦٩ هـ . وجد في حصاره واشتد القتال عليه وملكه بالأمان في شعبان من نفس السنة . ثم رحل إلى حصن عكار ونازله في السابع عشر من رمضان من هذه السنة . وجد في قتاله وملكه بالأمان في رمضان المذكور[1] وقيل في فتح عكار .

يا مليك الأرض بشراك فقد نلت الإرادة
ان عكارا يقينا هو عكا وزيادة

وكان هذا الحصن شديد الضرر على المسلمين[2] فأراحهم الله بفتحه وفيها تسلم قلعة القليعة وبلادها من الإسماعيلية . واستولى على حصن القرين وتسلم نواب الملك الظاهر بيبرس ما تأخر من حصون الاسماعيلية[3] . وبذلك استطاع الظاهر أن يقضي على فرقة الاسماعيلية التي كانت بلاء على الاسلام والمسلمين . فقد كانت حياته رحمه الله سلسلة من الجهاد المتواصل فقد ذكر أنه فتح في عهده أربعة حصونا كانت مع الفرنج[4] .

---

(١) انظر ابن الفداء : المختصر في أخبار البشر جـ ٤ ص ٤ .

(٢) انظر العيني عقد الجمان جـ ٢ ص ٧٧ الهيئة المصرية العامة سنة ١٩٨٩ .

(٣) انظر المرجع السابق .

(٤) انظر الذهبي : شذرات الذهب جـ ٥ ص ٣٥٠ .

ثانيا : أهم الفتوحات الإسلامية في عهد السلطان قلاوون :

الملك السلطان سيف الدين قلاوون كان ملكا عظيما والخير ما شهد به الأعداء . حيث يقول السيد وليم مويير عن السلطان قلاوون إنه كان " ملكا عاقلا ، جوادا محبا للخير وقد حسد له مؤرخوا عصره لينه وحلمه وعدله والحق أنه جدير بهذا الحمد[(١)] ".

وأهم فتوحاته : فتح المرقب وفتح طرابلس .

١ - فتح المرقب :

خرج السلطان الملك المنصور من دمشق بالعساكر المصرية والشامية متجها إلى المرقب[(٢)] ونازلها في أوائل ربيع الأول ٦٨٤ هـ وهو حصن في غاية العلو والحصانة . ولشدة حصانته لم يطمع أحد من الملوك الأوائل في فتحه[(٣)]. ويروي لنا الملك المؤيد في تاريخه هذا الحدث فيقول " إني حضرت حصار الحصن المذكور وعمري إذ ذاك نحو اثنتي عشرة سنة وهو أول قتال رأيته وكنت مع والدي . وطلب أهل الحصن الأمان فأجابهم السلطان وتسلمه في الساعة الثامنة من يوم الجمعة التاسع عشر من ربيع الأول من سنة أربع وثمانين وستمائة[(٤)] . وأمر بالإبقاء عليه لحصانته ومناعته وربت فيه حامية قوية من المماليك . واسترد قلاوون حصن مرقية من الصليبيين[(٥)] .

---

(١) انظر / وليم موير : تاريخ دولة المماليك البحرية في مصر ص ٦٠ : ٦١ المعارف - القاهرة .

(٢) المرقب : بلد وقلعة حصينه تشرف على ساحل بحر الشام وعلى مدينة بانياس .

(٣) العيني : عقد الجمان جـ ٢ ص ٣٣٨ الهيئة العامة للكتاب سنة ١٩٨٩ .

(٤) ابن الفداء : المختصر في أخبار البشر جـ ٤ ص ٤١ .

(٥) انظر / د السيد عبد العزيز سالم . طرابلس الشام في التاريخ الاسلامي ص ٢٨٦ .

٢ - فتـــــح طرابلــــس :

يحاول الظاهر بيبرس مهاجمة طرابلس سنة ٦٦٩ هـ / ١٢٧٠ م وبعـــد أن استولى على حصن الأكراد قصد السلطان بيبرس طرابلس وأحاطوا بطرابلس إحاطة الهالات بالأقمـــار . وعقد هدنة مع حكام طرابلس لمدة عشر سنـــوات إلا أن السلطان قلاوون شرع في فتح طرابلس بسبب نقض حكام طرابلس الهدنـة التي كانت مبرمة بينهم وبين السلطان بيبرس وذلك **بأنهم اعتدوا على التجـــار** المسلمين رغم تعهدهم بألا يتعرضوا له ولا يقطعوا الطريق على مسافـــــر . فصار قلاوون إلى طرابلس على رأس قوات من الفرسان والمشاة[٢] فوصل إليها يـوم الجمعة في مستهل ربيع الأول سنة ٦٨٨ هـ وحاصرها حصاراً شديداً فلما كان يوم **الثلاثاء الرابع من** جمادى الآخرة فتحت طرابلس بالقوة وقد كانت طرابلس في أيدى الفرنج من سنة ثلاث وخمسمائة[٣] هجرية إلى أن فتحت في سنة ثماني وثمانمائـــة وستة هجرية . وأحدث سقوط طرابلس في أيدى المسلمين دويا هائلاً . خفقت له قلوبهم في سائر أنحاء العالم الإسلامي ، وكتبت البشائر إلى الآفاق بهــذا النصر المبين[٤] . وعزم الملك قلاوون على فتح عكا حيث جهز جيشه ولكن المنيــة

---

(١) العيني : عقد الجمان ج ٢ ص ٣٣٨ الهيئة العامة للكتاب سنة ١٩٨٩ .

(٢) انظر / د . على ابراهيم حسن : تاريخ المماليك البحرية ص ٢٥٣ - النهضة المصرية سنة ١٩٦٧ .

(٣) انظر / ابن الفداء : المختصر في أخبار البشر ج ٤ ص ٢٣ .

(٤) انظر / د . السيد عبد العزيز سالم : طرابلس في الشام في التاريخ الاسـلامي ص ٢٩٤ .

عاجلته في الطريق . فأكمل المسيرة بعده ابنه الأشرف خليل .

ثالثا : أهم الفتوحات الإسلامية في عهد الأشرف خليل بن قلاوون :

هو السلطان الملك الأشرف صلاح الدين خليل بن السلطان الملك المنصور قلاوون الصالحي النجمي الألفي . قتل في الثالث عشر من محرم ٦٩٣ هـ وكانت مدة سلطنته ثلاث سنين وشهرين وأياما وكان شجاعا عالي الهمة . فتحت في عهده عكا والسواحل وقلعة الروم وبهسنسي ومرعش وغير ذلك[1].

١ - فتح عكا :

في سنة ٦٦٨ هـ - سقط الوجود الصليبي في إنطاكية وفي سنة ٦٨٨ هـ سقطت طرابلس ومن ثم أصبح الوجود الصليبي في عكا ، أو في الجنوب هو الغاية التي عدت كل جهود الجبهة الإسلامية موجهة إليه . هذا من ناحية ومن ناحية أخرى . فقد سجل التاريخ عن صليبي عكا . أنهم في شعبان ٦٨٩هـ ثاروا على التجار المسلمين وقتلوهم[2] . وعندما وصلت هذه الأنباء إلى السلطان قلاوون وطلب من الصليبيين تسليم المجرمين إليه فورا فعقد الصليبيون مجلسا واتخذوا قراراً بتسليم المجرمين إلى قلاوون ليسكن غضبه ولكن ذلك القرار تعارض مع الرأي العام المسيحي الذي رفض ذلك القرار بشدة إزاء ضغط الرأي العام المسيحي[3] قدم حكام عكا تبريرات واهية محتواها أن العدوان آتى

---

(١) انظر / العيني : عقد الجمان ج ٣ ص ٢٠٧ الهيئة العامة للكتاب سنة ١٩٨٩ .

(٢) انظر/ د . حامد غنيم أبو سعيد : الجبهة الاسلامية في عصر الحروب الصليبية ج ٣ ص

(٣) انظر د . سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد الاسلامي في العصور الوسطى ص ٩٣٢ - دار الفكر العربي ١٣٦٥ هـ .

به صليبيون أجانب . وأن الحكومة غير مسئولة عن ذلك الحادث ولكن هذه الأعذار الواهية لم تكن كافية لتهدئة غضب السلطان قلاوون الذى جهز الجيش لفتح عكا ولكن المنية عاجلته فى الطريق . وهو بذلك يذكرنا بالخليفة المعتصم الذى جهز جيشا من أجل امرأة مسلمة استغاثت به . وأننا فى عصرنا الحاضر لفى أشد الحاجة إلى حاكم مثل هؤلاء الحكام . حيث دماء المسلمين تنتهك فى كل مكان ولا يحرك ذلك ساكنا لدى حكامنا سوى التنديد والاستنكار .

وأخذ السلطان الأشرف خليل على عاتقه مهمة والده فى القضاء على الصليبيين فجهز الجيش ونودى فى دمشق للجهاد فى سبيل الله لفتح عكا فخرج الجميع من العامة والفقهاء والمدرسين والصالحين[1] . ملبين نداء الجهاد ونزل السلطان بجيشه عند عكا فوجدها قد حصنت بسائر العدد والآلات وكانت الفرنج قد استنجدوا بأهل قبرص وغيرها من البلاد وأرسلوا إلى ملوك الإفرنج مع الرهبان والقساوسة مبينين لهم أنه لم يبق حصن من حصون الفرنج يأوون إليه فى جميع السواحل غير هذا الحصن وأنه متى أخذ لا يبقى لسائر الإفرنج مكان يذكرون فيه فأجابوا على طلبهم بتزويدهم بجيش قوى ودارت بينهم وبين المسلمين مناوشات فرأوا من المسلمين ما ليس بحسبانهم فامتنعوا عن القتال وصاروا يدافعون دون أن يهجموا فحاصرها الأشرف خليل وشدد الحصار وقاتل من بها مدة أربعين يوما حتى فتحها عنوة[2] . وقيل قتل ما يزيد

---

(١) انظر / ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣٢٠ دار الفكر العربى .

(٢) البغدادى : الحوادث الجامعة ص ٤٧٠ ـ المكتبة العربية .

على عشرة آلاف نفس وتسلمها المسلمون بعد أن ظلت في أيدي الصليبيين مائة عام . وكانت معركة عكا هي الحاسمة في فصل الصراع بين الصليبيين والجبهة الإسلامية .

٢ - نهاية الصليبين بالشام :

* لما فتحت عكا ألقى الله تعالى الرعب في قلوب الفرنج ، الذين بساحل الشام[1]. فاحتل المماليك مدينة صور دون مقاومة بعد أن تركها نائب الملك هنرى الثاني وفر إلى قبرص .

أما صيدا فقد فر منها أهلها عند اقتراب الأمير الشجاعي ، فاستولى عليها المماليك ودمروا قلعتها في سنة ٧٠٢ هـ - سنة ١٢٩١ م . وكذلك احتل المماليك مدينة حيفا وهدموها وبذلك لم يبق للصليبين بالشام سوى موضعين هما انطرطوس[2] وعثليث . وكان هذان الموضوعان تابعين للداوية واستلمت الأولى في ثلاثة أغسطس والثانية في أربعة عشر أغسطس سنة ١٢٩١ م سنة ٧٠٢ هـ . وبذلك تكاملت بهذه الفتوحات جميع البلاد الساحلية للإسلام وهكذا أزالت دولة الصليبين بالشام وتخلص المسلمون من أولئك الغزاة الغربيين إلى حيث لا رجعة[3] . وعادت الأراضي الإسلامية إلى أهلها على أيدى

---

(١) ابن الغدا : المختصر في أخبار البشر جـ ٤ ص ٢٦ .
(٢) انطرطوس : بلد من سواحل بحر الشام وهى آخر أعمال دمشق من البلاد الساحلية وأول أعمال حمص . معجم البلدان جـ ١ ص ٢٧٠ .
(٣) انظر / د . سعيد عبد الفتاح عاشور - الحركة الاسلامية صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد الاسلامي ص ٩٣٦ .

سلاطين المماليك الذين حملوا لواء الزعامة في العالم الإسلامي وأخذوا على عاتقهم مهمة طرد الصليبيين من الأراضي المقدسة التي تعتبر جزءا لا يتجزأ من الشرق العربي وقد تم لهم ما أرادوا في أقل من نصف قرن من قيام دولتهم (١) . والحق كما قال الدكتور عبد المنعم ماجد " إنهم برعوا في الفنون الحربية ، بحيث كانوا سادة يسودون الممالك وقادة يجاهدون في سبيل الله ، وأهل سياسة يبالغون في إظهار الجميل ويردعون من جار أو تعمد (٢) " .

ونختم حديثنا عن الفتوحات الإسلامية بإلقاء نظرة إلى ما يترتب على تلك الفتوحات من نتائج .

نتائج الفتوحات الإسلامية في عصر سلاطين المماليك :

١ - حماية الدولة الإسلامية من التمزق والضعف : أحيا سلاطين المماليك الخلافة الإسلامية فكانت رمزا لوحدة المسلمين . مما جعل لدى المسلمين الإنتماء إلى العالم الإسلامي عامة وليس إلى قطر بعينه وذلك نراه واضحا في اتحاد المسلمين عند تعرضهم لخطر خارجي . ولعل أصدق تعبير عن ذلك ما حدث في سنة ٦٨٠ هـ حيث تعرضت الجبهة الإسلامية لهجوم كبير من قبل مغول فارس . وفي هذا الظرف الرقيق برزت الرابطة الدينية كأقوى ما يكون البروز . فقد توافدت إلى الميدان مختلف قوى

---

(١) انظر / د . أحمد شلبي : الحروب الصليبية بدؤها مع مطلع الاسلام واستمرارها حتى الآن . ص ١٩٢ - دار النهضة المصرية سنة ١٩٨٦ .

(٢) انظر / د . عبد المنعم ماجد : طومان باي آخر سلاطين المماليك ص ٢٦ - مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٨ .

الجبهة الإسلامية من أجل التصدى للغزاة . ومن ناحية أخرى احتشد جمع عظيم من المسلمين في الجامع الأموى بدمشق . وتضرعوا إلى الله وضجوا وبكوا وحملوا المصحف العثمانى من الجامع إلى المصلى خارج البلد وهم يسألون الله النصر على الأعداء . وفي مصر كان أهلها يقنتون في صلواتهم وكثرة قراءة صحيح البخارى وأقبل الناس على تلاوة القرآن . وتجمعوا في المشهد الحسيني وفي المساجد وكثر ضجيجهم ودعاؤهم[1] . فكانت الخلافة هي السياج الحامي للأمة الإسلامية التي تجتمع عليه ويقول الله تعالى " إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ[2] " ويقول أيضا " وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ[3] " . وسعى سلاطين المماليك إلى استرداد ما اغتصبه الصليبيون فأعادوا للأمة الإسلامية مجدها فقد أصبحت في ذلك العصر قوية الشوكة فهابهم ملوك العالم وفي ذلك يذكر لنا ابن تعزى الحوادث العديدة التي تؤكد ذلك بالنسبة للسلطان الظاهر بيبرس منها " أن تواقيعه التي كانت بأيدى التجار المترددين إلى بلاد القبجاق بإعفائهم من الصادر والوارد كان يعمل بها حيث خلو من مملكة باركة خان ومنكوتمر

---

(١) انظر / د . سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد الاسلامي ص ٩٣٢ - دار الفكر العربى ١٢٦٥ هـ .

(٢) سورة النحل آية رقم ١٢٨ .

(٣) سورة الحج آية رقم ٤٠ .

وبلاد فارس وقارسان[1] . وعندما طلب السلطان قلاوون استلام المجرمين الذين اعتدوا على التجار المسلمين بعكا . كان رد الصليبيين أن عقدوا مجلسا لبحث الأمر ، واقترح مقدم الداوية وهو بمثابة المسئول عن العمليات العسكرية أن يبادر الصليبيون بالقبض عليهم وتسليمهم لقلاوون فورا . فهم يخشون رد فعل السلطان قلاوون لمكانته ونفوذ دولته في ذلك الوقت ونجح سلاطين المماليك في تحرير الأراضي الإسلامية والحفاظ عليها واستبدال شعائر الكفر بشعائر الإسلام . ونتيجة لتلك الإنتصارات أن أُلقي الرعب في قلوب الأعداء وخير مثال لذلك بلاد الأرمن حيث ضعفت شوكتهم وسعوا إلى طلب الهدنة مع سلاطين المماليك .

٢ - حماية المسلمين من الفتن : ارتكب الصليبيون الجرائم البشعة ضد المسلمين من قتل وتخريب هذا إلى جانب **التضييق** على المسلمين في حياتهم مما جعل المسلمين عرضة للفتن . فمن الله على المسلمين بأن وفق سلاطين المماليك في فتوحاتهم فعاشوا في عزة وأمن على أنفسهم ودينهم .

٣ - نشر الدعوة الإسلامية : شيد سلاطين المماليك المساجد للبلاد التي فتحوها وعينوا الدعاة واهتموا بتصحيح المفاهيم الإسلامية . حيث قد شوهت بمعرفة أهل الصليب والحاقدين على الإسلام فكان من نتائج ذلك

---

(١) ابن تغرى - النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ١٨٢ - المؤسسة المصرية العامة .

أن وجد مسلمون يتشبهون بالفرنجة حتى أنه يذكر أن المسيحى كان يتزوج بمسلمة . فلا حول ولا قوة إلا بالله : فكان ولا بد أن تعاد الموازين إلى نصابها ونشر علماء العصر المملوكى فى ذلك الوقت وهم كثرة الدعوة الإسلامية الصحيحة هذا إلى جانب القدوة الحسنة التى نتجت من سلوك القادة فكانت دافعاً لدخول كثير فى الإسلام . فقد كثر عدد المغول الذين أسلموا ووفدوا إلى مصر فى عهد بيبرس وأكرمهم وعرفوا بالوافدين[1] وحدث فى سنة ٦٩٤ هـ أن وصل الرحبة جنود كثيرة نحو عشرة آلاف جندى من جنود بيدو ملك التتار طالبين الدخول فى الإسلام فأرسل الملك العادل كتاباً إلى الأمير علم الدين سنجر لاستقبالهم وحسن إسلام هؤلاء القوم على أيدى سلاطين المماليك .

---

(١) انظر / د . أحمد شلبى : موسوعة التاريخ الاسلامى - مكتبة النهضة سنة ١٩٩٠ .

الفصل الرابع
أبرز علماء العصر المملوكى
وأثرهم فى نشر الدعوة الإسلامية

* الفصل الرابع *

أبرز علماء العصر المملوكي وأثرهم في نشر الدعوة الإسلامية

زخر العصر المملوكي بعلماء نبغوا في مختلف الميادين . وأصبحت مصر في ذلك العصر كعبة العلماء فلقد نبغ فيها طائفة من فطاحل العلماء والأدباء والشعراء .

(فالقلقشندي) صاحب (صبح الأعشى) والأبشيهي صاحب (المستطرف) وابن منظور صاحب (لسان العرب) ، وابن هشام النحوي العظيم الذي بلغ من النحو شأناً عظيماً ، وابن عبد الظاهر ، وشمس الدين السخاوي صاحب الضوء اللامع ، وابن خلكان المؤرخ المشهور صاحب وفيات الأعيان ، والصفدي صاحب الوافي ، وابن حجر المؤرخ إمام الحفاظ والمحدثين في زمانه ، والعيني المؤرخ والمحدث وابن وصيف .

والمقريزي صاحب الخطط والسلوك ، وأبو الفداء المؤرخ الجغرافي المشهور صاحب تقويم البلدان ، والنويري صاحب نهاية الأرب في فنون الأدب ، وابن فضل الله العمري صاحب مسالك الأبصار في ممالك الأمصار) وابن تغري بردي صاحب النجوم الزاهرة وجلال الدين السيوطي صاحب التآليف الشهيرة في التفسير والعلوم والتاريخ والأدب واللغة . وابن إياس المؤرخ الذي أدرك الفتح العثماني صاحب بدائع الزهور في وقائع الدهور واستضافت[1] مصر في ذلك العصر المملوكي جماعة من أفذاذ العلم والفلسفة في الشرق كالإمام ابن تيميه وابن قيم الجوزية وفيلسوف المؤرخين ابن خلدون . كما وجد علماء في الطب أمثال ابن أبي أصيبعة صاحب

---

(١) أنظر / راسم رشدي : مصر والشراكسه ص ١٣١ ، ١٣٢ - القاهرة ١٩٤٨ .

كتاب (عيون الأنباء في طبقات الاطباء) وعلى بن النفيس رئيس الأطباء في مستشفى السلطان قلاوون [(١)] وسنلقى الضوء على أشهر علماء ذلك العصر من خلال دورهم في خدمة الدعوة الإسلامية من خلال علاقتهم بسلاطين الدولة المملوكية.

---

(١) أنظر د / أحمد شلبى : موسوعة التاريخ الاسلامى جـ ٥ ص ٦٤١ - مكتبة النهضة ١٩٩٠ .

١ ـ العز بن عبد السلام

مولده ونشأته :-

العز بن عبد السلام " هو الشيخ الإمام العلامة عز الدين بن عبد السلام بن أبي القاسم الحسن بن محمد بن المهذب أبو محمد السلمي الدمشقي الشافعي[١] شيخ المذهب ، ومفيد أهله . ولد سنة سبع أو ثمان وسبعين وخمسمائة وكانت وفاته في العاشر من جمادى الأولى من سنة ٦٦٠ هـ وقد نيف على الثمانين ودفن بسفح جبل المقطم ، وحضر جنازته الملك الظاهر بيبرس وخلق من الأئمة .

أثره في نشر الدعوة الإسلامية :-

يعتبر العز بن عبد السلام من العلماء الذين عاصروا الدولتين : الأيوبية والمملوكية وكان سبب خروجه من الشام رحمه الله إنكاره على الصالح إسماعيل تسليمه صفد والشقيف إلى الفرنجة[٢] . وأخرج من بلده بسبب ذلك فقد كان قويا في الحق مجاهدا في سبيل الله لا يخشى في الله لومة لائم

وصار ابن عبد السلام إلى الملك الصالح أيوب بن الكامل صاحب مصر فأكرمه وولاه قضاء مصر وخطابة الجامع العتيق ثم انتزعها منه وأقره على تدريس الصالحية . وكان رحمه الله يحث المسلمين في خطبه على الجهاد

---

(١) العيني : عقد الجمان ج ١ ص ٢٣٨ ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٩ .

(٢) أنظر / ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٣٦ ـ دار الفكر العربي

في سبيل الله ويهاجم السلاطين إذا رأى منهم منكراً . ويذكر أن السلطان سيف الدين قطز تتلمذ على يديه . وكان نتيجة ذلك أن كان قطز متفانياً في خدمة الإسلام وأهله .

وللعز بن عبد السلام مواقف بطولية رائعة فقد كان له نفوذ قوى لدى السلاطين . ومن تلك المواقف نذكر : حين أراد الملك المظفر قطز الخروج لقتال التتار بالشام ، وأراد أن يجهز الجيش ولم يجد ما يكفيه . فاحتاج إلى المساعدة بشيء من أموال الرعية . لمواجهة العدو المغولي بقوة تكسر شوكته . فجمع القضاة والفقهاء لاستشارتهم في هذا وطلب الموافقة على ماعزم عليه . فسكت من كان في المجلس إلا الشيخ عز الدين الذي قال "إذا طرق العدو بلاد الإسلام وجب على الحاكم قتالهم وجاز لكم أن تأخذوا من الرعية ماتستعينون به على جهادكم بشرط . ألا يبقى في بيت المال شيء من السلاح والسروج الذهبية والفضية والكبابيش المزركشة وأسقاط السيوف والفضة وغير ذلك وتبيعوا مالكم من الحوائض الذهبية اللآلئ النفيسة . فيقتصر كل الجند على سلاحه ومركوبه وتتساووا هم والعامة أما أخذ الأموال من العامة مع بقايا في الجند من الأموال واللآلات الفاخرة فلا "[1] .

وأصبحت تلك الفتوى نموذجاً للقياس فيما بعد العصر المملوكي وبلغ من مهابة الشيخ عز الدين في قلوب السلاطين والأمراء أنه لما توفى سنة ٦٦٠ هـ حضر الجنازة خلق كثير وحضرها الظاهر بيبرس والعلماء ،

---

(١) ابن تغرى : النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٧٢ - المؤسسة المصرية العامة .

فقال لبعض خواصه " اليوم استقر أمرى فى الملك "[1] لأن هذا الشيخ لو كان يقول للناس : اخرجوا عليه لانتزع الملك منى . هذا إلى جانب إسهامه فى خدمة الدعوة بعلمه لقد جمع علوماً كثيرة وأفاد ودرس وله مصنفات حسان منها . التفسير ، واختصار النهاية ، والقواعد الكبرى والصغرى وكتاب الصلاة والفوائد الموصلية[2] وغير ذلك .

---

(١) انظر / السيوطى : حسن المحاضرة جـ ٢ ص ٧٤ - مطبعة الموسوعات.

(٢) انظر العينى : عقد الجمان جـ ١ ص ٣٣٨ - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٩ .

٢-ابــن تيمـيــة

مولـده ونشأتـه :-

وهو "أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبـي القاسم الخضر بن على بن عبد الله ، شيخ الإسلام تقي الدين أبو العبـاس ابن أبي المحاسن . شهاب الدين بن أبي البركات مجد الدين الحرانـي الأصل والمولد الدمشقى الدار والوفاة الحنبلي المعروف بابن تيميـة[(١)] الإمام العلامة الحافظ الحجة فريد دهره مولده بحران في يوم الإثنيـن عاشر شهر ربيع الأول سنة إحدى وستين وستمائة من الهجـرة .

نشأ الإمام في بيت علم وفضل وتربى في أحضان مدرسة الحديث السكريـة بالقصاعين بدمشق التي كان يرأسها والده وقد أنعم الله عليه بسرعة الحفـظ وقوة الذاكرة والذكاء الخارق والنبوغ المبكـر[(٢)] .

(ذَلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ)[(٣)] فحفـظ القرآن الكريم منذ حداثة سنه واستمر حافظاً له إلى أن فاضت روحه إلى ربهـا حتى أنه تلاه في سجن القلعة بدمشق وختمه ثمانين ختمه وشرع فـي الحادية والثمانين[(٤)] حتى وصل إلى قوله تعالى (إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّـٰتٍ وَنَهَرٍ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ)[(٥)] . فأكمل القرآن بعد وفاته الشيخـان عبد الله بن المحسب وعبد الله الزراعـي .

---

(١) أبو المحاسن : المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي ج ١ ص ٣٥٨ .
(٢) أنظر / دكتور محمد رباب : محاضرات في تاريخ الدعوة الاسلامية ص ٨ أسوط
(٣) سورة الجمعـة آيـة ٤ .
(٤) انظر ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٤ ص ١٣٨ - دار الفكر العربي .
(٥) سورة القمر آيـة ٥٤ ، ٥٥ .

أثره في خدمة الدعوة الإسلامية :-

١ - سعة علمه :-

كان إماما في التفسير وما يتعلق به عارفاً بالفقه ، فيقال إنه كان أعرف بفقه المذاهب من أهلها الذين كانوا في زمانه وغيره ، وكان عالما باختلاف العلماء ، عالما في الأصول والفروع والنحو واللغة وغير ذلك من العلوم النقلية والعقلية [١] .

وقد أثنى عليه جماعة من كبار العلماء ، من ذلك ما كتبه القاضي كمال الدين بن الزملكاني [٢] على كتاب (رفع الملام عن الأئمة الأعلام) تأليف ابن تيمية مالفظه : تأليف الشيخ الإمام العالم العلامة الأوحد الحافظ والمجتهد الزاهد العابد القدوة إمام الأئمة ، قدوة الأئمة علامة العلماء .. الخ [٣] وقد وُجِدَ بخطه أنه قال اجتمعت فيه شروط الإجتهاد على وجهها [٤] وأن له اليد الطولى في حسن التصنيف وجودة العبارة والتركيب والتقسيم

---

(١) انظر / ابن كثير البداية والنهاية جـ ١٤ ص ١٣٨ - دار الفكر العربي .

(٢) الزملكاني : قاضي القضاة ذو الفنون جمال الاسلام كمال الدين أبو المعالي محمد بن علي بن عبد الواحد بن عبد الكريم الزملكاني الانصاري السماكي الدمشقي الشافعي قاض قضاه دمشق ولد في سنه سبع و ستين وستمائة وتوفي سنه سبع وعشرين وسبعمائه ابن تغري ، النجوم الزاهرة ص ٢٧٠) - المؤسسة المصرية العامة .

(٣) انظر ابو المحاسن : المنهل الصافي جـ ١ ص ٣٦١ .

(٤) انظر / ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١٤٠ ص ١٣٧ دار الفكر العربي

وكتب على تصنيف لابن تيمية هذه الأبيات :-

ماذا يقول الواصفون لـه   وصفاته جلت عن الحصـر

هو حجة لله قاهـرة   هو بيننا أعجوبة الدهـر

هو آية في الخلق ظاهرة   أنوارها أربت على الفجـر

وتعلم ابن تيمية العلوم التي كانت رابحة في عصـره .

ولم يترك باباً من الأبواب إلا أتقنه . ولقد قال فيه أحد معاصريه قد ألان الله له العلوم التي كانت رائجة في عصره ولم يترك باباً من الأبـواب إلا أتقنه . وإذا سئل عن فن من العلم ظن الرائي والسامع أنه لا يعرف غـير ذلك الفن . وكان الفقهاء من سائر الطوائف إذا جلسوا معه ، استفـادوا في مذاهبهم منه . مالم يكونوا عرفوه قبل ذلك . ولا يعرف أنه ناظر أحـدا فانقطع منه ، ولا تكلم في علم من العلوم سواء أكان من علوم الشرع أم مـن غيرها ، إلا فاق فيها أهله والمنسوبين إليه [1] فقد كان رحمه الله قل أن سمـع شيئا إلا حفظه ، ثم اشتغل بالعلوم فدرس وتخرج على يديه علماء أجـلاء أفادوا الدعوة ومن أشهرهم ابن القيم الجوزيـة

٢ - جهاده ضد التتـار :-

لم يقف ابن تيمية عند جهاده في العلم وإنما انتقل إلى ميدان القتـال ولم يتردد في أن يكون في طليعة المجاهدين بنفسـه للتتار وهنا ظهـر

---

(١) انظر المرجع السابق جـ ١٤ ص ١٣٧ .

ابن تيمية العالم العامل ، المؤمن القوى ، المجاهد فى سبيل الله . فكانت له مع العدو مواقف محمودة . وكان لهذه المواقف آثارها العظيمة فى إذكاء الروح الدينى والوطنى[1] لدى السلاطين والأمراء وعامة الناس . فعندما هرب الجنود إلى مصر فارين . وصار التتار على أبواب دمشق فجمع ابن تيمية العلماء ، واتفق معهم على ضبط الأمور ، وأن يذهب على رأس وفد منهم وقد ذهب الشيخ مع الوفد ، والتقى بقازان ملك التتار وقائدهم وقد كسا الله الشيخ حلة من المهابة . والإيمان والتقى . وقد ذكر الذين شاهدوا اللقاء إنه ظل يحدث السلطان والسلطان مصغ لما يقول شاخصا إليه . وتحدث كلاما قويا كان فيه مصلحة للمسلمين .

وفى سنة ٧٠٠هـ اشتد الخطر على الشام من هؤلاء التتار فأصبح الناس ما بين هارب ، ومستسلم . فخرج الشيخ فى مستهل جمادى الأولى والناس يتملكهم الهلع والرعب إلى نائب الشام . فحثهم على الجهاد وقوى من عزيمتهم ووعدهم النصر على الأعداء إن هم صبروا وأعدوا العدة للقائه وتلا قوله تعالى " ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ "[1] وبات مع الجنود ليله ثم عاد إلى دمشق وسأله النائب والأمراء أن يسافر إلى مصر يستحث السلطان على نصرة الشام . فأجتمع

---

(١) انظر / د محمد يوسف موسى : ابن تيمية ص ١٣٦ الهيئة المصرية العامة لكتاب س ١٩٧١ .

(٢) سورة الحج اية ٦٠ .

بسلطان مصر والأمراء وقال لهم " إن كنتم أعرضتم عن الشام وحمايته أقمنا لـه سلطانا يحميه " ثم قال لوقدر أنكم لستم حكام الشام ولا ملوكه واستنصركم أهله وجب عليكم النصر . فكيف وأنتم حكامه وسلاطينه وهم رعاياكم وأنتم مسئولون عنهم [1] وقوى جأشهم . فكان لهم النصر في تلك الكرة واشترك مع السلطان في موقعة شقحب في ميدان القتال سنة ٧٠٢ هـ فهكذا كانت علاقته بالملوك يطيع في غير معصية . وينصح ويرشد في غير غلظة أو عنف إلا إذا تقاضاه الحق أن يقول في صرامة وقوة [2] فقد كان رحمه الله مثلاً يحتذى به وقدوة صالحة في العفو عند المقدرة . مما كان له الأثر في هداية الكثيرين على يديه فقد استفتاه السلطان الناصر محمد بن قلاوون في العلماء والقضاة الذين ناصروا خصمه . فأفتى بأن دماءهم حرام عليه . وأنه لا يحل إنزال الأذى بهم فقال له السلطان : إنهم آذوك وأرادوا قتلك مراراً . فقال الشيخ الكريم كلمة أضاءت جنبات التاريخ : من آذاني فهو في حل ومن آذى الله ورسوله فالله ينتقم منه . وأنا لا أنتصر لنفسي . ولم يكتف الشيخ بالامتناع عن الإفتاء والفتوى بعكس ما يريد السلطان . بل أخذ يخاطبه في العفو عنهم . فقال قاضي قضاة المالكية ابن مخلوف :

ما رأينا مثل ابن تيمية حرضنا عليه فلم نقدر عليه وقدر علينا فصفح عنا وحاج عنا [3] . فهكذا تحقق قول الله تعالى جليا واضحا " وَلَا تَسْتَوِي

---

(١) انظر د / محمد دياب محاضرات في تاريخ الدعوة الاسلامية اسيوط .

(٢) انظر/ د محمد محمد ابو زهره : ابن تيميه حياته وارائه الفقهية ص ١٣ دار الفكر العربي .

(٣) انظر/ ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١٤ ص ٥٤ - دار الفكر العربي .

الحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَـــداوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ [1] . ولقد لقى ابن تيمية فى سبيل الدعوة إلى اللـــه الأذى ولكنه صبروا حتسب أجره عند الله . فكانت من عباراته المشهـــورة يوم منعوا عنه الكتب والورق والقلم فى سجن دمشق ٧٢٦هـ "إن حبسى خلـوة وإخراجى من بلدى سياحة وقتلى شهـــادة" [2]

---

(١) سورة فصلت آيـــة ٣٤ .

(٢) انظر / صلاح عزام : الحبه ومسئوليه الحكومه الاسلامية لابن تيميه .

٣ - ابن حجر العسقلانـــى

مولـده ونشأتــه :-

هو أحمد بن محمد بن على بن أحمد بن حجر الشافعى العسقلانـــى الأصل المصرى المولد . القاهرى الدار والمنشأ والوفاة ولد على أرجـــح الأقوال فى الثالث والعشرين من شعبان سنة ٧٧٣هـ أول مارس ١٣٧٢م واستقر أجداده فى مصر التى انتقلوا إليها من عسقلان بأرض فلسطين[1] ولعظيم شأن حياته فقد وضح تلميذه العالم المؤرخ شمس الدين السخاوى كتابـــا حافلاً بمراحل حياتـــه .

أثره فى خدمة الدعوة الإسلاميـــة :-

يتبـوأ ابن حجر العسقلانى فى جدارة واستحقاق مركز الصـــدارة بين المحدثين والحفاظ فى العالم الإسلامى منذ بداية القرن التاســـع للهجرة . وهو مركز لم يستطع احتلاله أحدٌ ممن عاصروه وزاحموه ولا من جاءوا بعده وشغلوا أنفسهم بهذا الضرب أو ذاك من الدراسة ، فأتفقوا علـــى أنه حامل رايتهم والمقدم منهم والمهتدى برأيــه .

---

(١) انظر / ابن حجر العسقلانى : انباء الغمر بانباء العمر ج ٧ تحقيــق د / حسن حبشى - القاهـره س ١٩٧١ .

وابن حجر متعدد الجوانب من حيث الثقافة ، فقد أسهم في الحديث والفقه والأدب والتاريخ ، وطبعت مؤلفاته صغيرها وكبيرها ومجالس إملائه كما يشهد تلاميذه وغير تلاميذه من عاصروه في مصر والشام وغيرهما من بلاد العالم الإسلامي . بطابع الدقة وتحكيم العقل والمنطق فهو . لا يورد خبراً إلا بعد أن يكون انتظمت له عدة أسباب الدراسة والبحث والتمحيص والمقارنة . فقد كان رحمه الله أمينا في علمه مخلصا للدعوة الإسلامية . فكانت جهوده مثمرة " وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ "(١) فقد ذاعت شهرة مؤلفاته الضخمة في الحديث والفقه والتراجم وأشهر كتبه فتح الباري في شرح البخاري ، وهو في ستة عشر مجلداً بمقدمته ولو لم يكن له غيره من المؤلفات لكفى للتنويه بعلو مكانته . على قول معاصريه والمنتفعين به من المحدثين حتى الوقت الحاضر .

وكتاب (إتحاف المهرة بأطراف العشرة) في ثمان مجلدات . وكتاب (تهذيب الكمال) في مجلد ضخم . وتنوعت مؤلفاته فشملت التاريخ ومن أشهر مؤلفاته في التاريخ :(كتاب الدرر الكامنة) في المائة الثامنة . وكتاب أنباء الغمر بأنباء العمر .

وصار هو المعول عليه في هذا الشأن في سائر أقطار الأرض ، وقدوة الأئمة علامة العلماء حجة الأعلام ، انتفع به الطلبة وحضر دروسه جماعة من علماء عصره وقضاة قضاته(٢) .

---

(١) سورة البقرة من الاية ٢٨٢ .

(٢) انظر / ابو المحاسن : المنهل الصافي جـ٢ ص ١٧ : ٢٧ .

هذا إلى جانب دوره في خدمة الدعوة من خلال سلوكه ـ فقــــــد كان رحمه الله يحسن لمن يسيء إليه ويتجاوز عمن قدر عليه .

فكان ذا وقار ومهابة . وسعى العلماء وكانت أمانيهم أن يصلـــــوا إلى رتبته في الحديث فقد قال عنه السيوطي "إنه لما حج شربت من مــــاء زمزم لأمور منها أن أصل في الفقه إلى رتبة سراج الدين البلقيني . وفــــي الحديث إلى رتبة الحافظ ابن حجر العسقلانـــي" (١)

---

(١) السيوطي : حسن المحاضرة جـ١ ص ١٥٧ ـ مطبعة الموسوعـــات .

٤ ـ جلال الدين السيوطي

مولده ونشأته :-

هو عبد الرحمن بن الكمال ابن بكر بن محمد بن سابق الدين ابن الفخر عثمان بن الناظر الدين محمد بن سيف الدين خضر بن نجم الدين أبي الصلاح أيوب بن ناصر الدين محمد بن الشيخ همام الدين الهمام الخضيري الأسيوطي . حفظ القرآن وهو دون ثماني سنين . وحفظ العمدة ومنهاج الفقه والأصول وألفية ابن مالك [1] واشتغل بالعلم مبكرا . وسافر السيوطي إلى بلاد الشام والحجاز واليمن والهند والمغرب [2] والتكرور

ثمار علمه :-

قال السيوطي " رزقت التبحر في سبعة علوم : التفسير والحديث والفقه والنحو والمعاني والبيان والبديع على طريقة العرب والبلغاء . لا على طريقة العجم وأهل الفلسفة [3]

وقد ظل السيوطي طوال حياته مشغوفا بالدرس مشتغلاً بالعلم يتلقاه من شيوخه ويلقنه لتلاميذه أو يحرره في الكتب والأسفار .

وأما كتبه . فقد أحصى السيوطي منها في كتابه نحو من ثلاثمائة كتاب في مختلف العلوم . فما زالت مؤلفاته مصدراً غنيا للباحثين . وكان

---

(١) انظر السيوطي : حسن المحاضره ج ١ ص ١٥٦ مرجع سابق .

(٢) المرجع السابق ج ١ ص ١٥٧ .

(٣) المرجع السابق .

رحمه الله في حياته الخاصة مثلاً يحتذى به فقد كان على أحسن ما يكون عليه علماء ورجال الفضل والدين عفيفا كريماً ، غني النفس متباعدا من ذوي الجاه والسلطان ولا يقف بباب أمير أو وزير ، قانعا برزقه . وله مواقف مع سلاطين المماليك تدل على نزاهته . فقد ذكر أنّ السلطان الغوري أرسل إليه هدية وكانت ألف دينار وخصيا ، فرد الدنانير ، وأخذ الخصي ثم أعتقه ، وجعله حارساً في الحجرة النبوية . وقال لرسول السلطان . لا تعد تأتينا قط بهدية ، فإن الله أغنانا عن ذلك [1] فهكذا كانت صفات علماء ذلك العصر .

---

(١) انظر د / علي احمد الخطيب / مجلة الازهر عدد مايو ١٩٩٣ / ذو القعدة ١٤١٣ هـ ص ٢ .

٥ - بدر الدين العيني

مولده ونشأته :-

بدر الدين أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن يوسف ابن محمود الشهير بالبدر العيني . ولد في بلدة (عنتاب) بين حلب وانطاكية في السابع عشر من رمضان سنة اثنين وستين وسبعمائة من الهجرة ، ونشأ بها نشأة أبناء زمانه ، فتلقى العلوم على أيدى والده القاضي شهاب الدين أحمد وعلى غيره من الشيوخ

أثره في خدمة الدعوة الإسلامية :-

نال البدر من رفعة المنزلة وعلو الدرجة أيام السلطان برسباى ما لم ينله في أيام غيره من السلاطين . فكان يترجم له تاريخه (عقد الجمان) إلى التركية ، ويعلمه أمور الدين . ولمعرفة مكانة البدر ودوره في خدمة الدعوة الإسلامية ما قاله السلطان الأشرف برسباى " لولا البدر العيني لكان في إسلامنا شيء " وقد عده الحافظ ابن حجر في عداد شيوخه برغم تقاربهما في السن .

وقد ترك لنا البدر العيني رصيداً ضخما في المصنفات في جميع العلوم المعروفة في زمانه ، حتى قيل إنه لا يقارن به واحدا من أهل عصره في كثرة مصنفاته . إلا أن يكون الحافظ ابن حجر . فصنف البدر العيني في علوم التفسير ، وعلوم الحديث ، وعلوم اللغة ، والفقه والتاريخ والمنطق والعروض[1] ولا شك في أن هذا التراث الذى خلفه لنا البدر العيني

---

(١) انظر / العيني : السيف المهند في سيره الملك المؤيد ص ٤ .

يعطى فكرة واضحة عن القيمة العلمية التى كانت له فى عصره ومـــدى ما كان يتمتع به من سعة الإطلاع والمقدرة الفائقة فى البحث والتنقيـب، ولقد أثنى عليه كثير من العلماء ممن عاصروه أو جاءوا بعده . فقيـل عنه ، إنه شيخ العصر وأستاذ الدهر ، ومحدث زمانه المتفرد بالروايـة والدراية . وقيل عنه أيضا . كان إماماً عالماً ، حافظاً للتاريخ واللغـة وكثير الإستعمال لها مشاركاً فى الفنون لا يمل من المطالعة والكتابـة . ويكفى الإشارة إلى مؤلفه الضخم فى التاريخ "عقد الجمان فى تاريـخ أهل الزمان " حيث إن البدر كان شاهد عيان للأحداث ومشاركـا فيها . وتعتبر مؤلفاته مصدرا غنيا للباحثين إلى عصرنا هذا . وسجـل ذلك العصر مملوء بالعلماء والدعاة الذين لهم مواقف عظيمة عنـد السلاطين . وهم أكثر من أن تحصيهم عددا .

الباب الثالث

الدولة المملوكية بين الشبهات والسقوط

ويشتمل على فصلين :

* الفصل الاول : مزاعم ومفتريات حول الدولة المملوكية
* الفصل الثانى : نهاية الدولة المملوكية

الفصل الأول

مزاعم ومفتريات حول الدولة المملوكية

" الباب الثالث "

الدولة المملوكية بين الشبهات والسقوط

(الفصل الأول)

" مزاعم ومفتريات حول الدولة المملوكية "

ينال المستشرقون والحاقدون على الإسلام من كل دولة رفعت راية الجهاد ضد المعتدين ، حيث إن الدولة المملوكية كانت من الدول الإسلامية التي رفعت راية الجهاد ضد الصليبيين والتتار . ودافعت عن البلاد الإسلامية بقوة حتى قضت على الأعداء لذا فهي لم تسلم من مفترياتهم فمن تلك المفتريات إتهامهم المماليك بالديكتاتورية والسكر والمجون والغريزة وباضطهادهم لأهل الذمة وسنحاول أن نتعرض لتلك المفتريات مبينين مدى صحتها :-

أولاً : إتهام المماليك بالديكتاتورية[1] :

وفي ذلك يقول الدكتور أحمد شلبي "إنه في إحدى المحاضرات التي ألقاها أستاذ التاريخ قال " إن المماليك كانوا يحكمون مصر حكما ديكتاتوريا(٢) ونحن نرد على هذه الفرية بأنه لا بد عند الحكم على عصر من العصور لا بد أن نأخذ في الإعتبار خصوصية المجتمع وخصوصية العصر ، فإنه لمن الظلم الفاحش أن نقارن الحركة العلمية في العصر المملوكي مثلا بالحركة العلمية في عالمنا المعاصر . وكذلك لا يمكننا مقارنة نظم الحكم في العصر المملوكي بعالمنا المعاصر . ولكن الشيء المنطقي أن نقارن بالعصور القريبة له .

---

(١) الديكتاتورية : لفظ مأخوذ عن اللاتينيين ما يتعهد به (النظام السياسي الذي بمقتضاه يستولي فرد أو جماعة على السلطة المطلقة دون اشتراط موافقة الشعب (٢) انظر / د . أحمد شلبي - موسوعة التاريخ الاسلامي جـ ٥ ص ٢٢٢ مكتبة النهضة ١٩٩٠ م .

ولو تتبعنا ذلك المنطق لوجدنا أن المماليك كانوا أكثر ديمقراطية من غيرهم فلو نظرنا إلى ملوك الإنجليز من القرن الثالث عشر مثل الملك هنري الثاني وابنه الملك جون . حيث خلع الإبن أباه بمؤامرة خائنة . وتسلط على الأمراء ورجال الكنيسة[1] وتاريخ تلك الدول مليء بالأحداث المظلمة التي توضح أن الديكتاتورية كانت الأصل السائد في تلك العصور . فما أشد الخطأ عندما نحكم على عصر سابق بعلم عصر حاضر . ومع ذلك لو نظرنا إلى حكم المماليك برؤية معاصرة لا تضح لنا أن حكمهم لم يكن ديكتاتوريا بالمعنى المعاصر للديكتاتورية . حيث تمتع علماء ذلك العصر بنفوذ وسلطات واسعة لا يمكن أن تتاح لهم في ظل نظام ديكتاتوري . ونشير إلى بعض المواقف الرائعة لعلماء ذلك العصر . فنرى العز بن عبد السلام . حيث يروى لنا السيوطي عنه في حسن المحاضرة أن الشيخ تصدى لبيع أمراء الدولة الأتراك وذكر أنه لم يثبت عنده أنهم أحراراً وأن حكم الرق مستصحب عندهم والشيخ مصمم بألا يصح لهم بيعا ولا شراء ولا نكاحا وبذلك تعطلت مصالحهم وكان نائب السلطنة من جملتهم فاستشار غضبا فاجتمعوا وأرسلوا إليه . فقال الشيخ نعقد مجلسا وننادي عليكم بالبيع لبيت مال المسلمين . وقد حاول السلطان منع الشيخ من هذه الفتوى فأبى وتمسك . وقد وصل الأمر إلى ترك الشيخ مقر عمله . ولكن العامة من خلفه يؤيدونه وأخيرا رضخ السلطان لأمر الشيخ وجمع كل الأمراء في القلعة بأمر الشيخ ثم عرضوا في مزاد ونادى الشيخ فغالى

---

(١) المرجع السابق ص٢٢٢ .

من ثمنهم حتى امتنع الحاضرون عن المزايدة في الثمن . فتقدم السلطان فدفع ثمنا أزيد من ماله الخاص لا من مال بيت المال حتى اشترى جميع الأمراء المماليك وأعتقهم لوجه الله فصاروا أحراراً وما قبضه الشيخ وزعه على الفقراء وطلاب العلم وأقام مكاتب لتعليم القرآن والخط وعلوم اللغة [1] . وليت الأمر انتهى عند ذلك بل أن الشيخ رفض مبايعة الظاهر بيبرس سلطانا وقال له ما أعرفك إلا مملوكا للبندقداري . فأنت عبد لا تصلح لتولي الأمر فالشرط أن يكون ولي الأمر حرا . وذلك أن الرق يمنع من انعقاد الولاية [2] ولكن من أعتق يجوز له أن يكون من أهل الولاية الكاملة وهي عدة شروط نجملها " الإسلام والحرية والذكورة والبلوغ والعقل " وأثبت الظاهر أنه أعتق وأنه أصبح حرا فبايعه الشيخ بعد أن تأكد من حريته وتلك الحرية والمكانة العظيمة لهؤلاء العلماء التي جعلتهم يخوضون في قضية تخص شخص السلطان لدليل واضح على أن روح الإسلام كانت هي السائدة في ذلك العصر وهي التي جعلت سلاطين المماليك يتقبلون ذلك الأمر بصدر رحب . وكان للشيخ محيي الدين النووي المتوفى في عام ٦٧٦ هـ مواقف مشهودة مع السلطان بيبرس ومراسلات إليه فيها التوجيه الرشيد والنصح الصريح [3] وقد حدث أن تعرضت البلاد في بعض عهود الركود إلى أزمات مالية حادة اختل بسببها ميزان الموارد

---

(١) انظر د . / محمد دياب : محاضرات في تاريخ الدعوة الاسلامية

(٢) انظر د . / سليمان محمد الطماوي : نظام الحكم والادارة في الاسلام ص ٤٣٣ دار الفكر العربي .

(٣) راجع / هذه المكاتبات في السيوطي جـ ١ ص ٦٧ : ٧١ - مطبعة الموسوعات .

بالمنصرف فاضطرت الدولة إلى الضغط على مصروفاتها والدعوة إلى التقشف ومحاربة البذخ والإسراف مع زيادة الموارد الإنتاجية ولكن ما السبيل إلى تنفيذ تلك السياسية ؟ لم يكن من سبيل أمام وزير الدولة فيعينك في سنة ٧٥٠ هـ / ١٣٤٩ م إلا الإستعانة بأهل العلم(١) وتم اجتماع بدار العدل تشاور فيه مع قاضي القضاة والقضاة وكبار الأحرار . بحضره السلطان ومناقشة ما أحدثته نساء السلطان وجواريه من قمصان طوال تخب أذيالها على الأرض ، بأكمام سعة الكم منها ثلاثة أذرع وأبطال لبس الإزار البغدادي وحدد ثمن الإزار الحرير بألف درهم . وأن خف المرأة وسرموزتها بخمسمائة درهم . ناقش المجتمعون أثر هذه الموديلات الجديدة في الغلاء الذى تعانى منه طبقات الشعب وأن نساء القاهرة تشبهن بنساء السلاطين في تغيير زيهن ومجاراتهن في ملبسهن على حين تجد طبقات العامة مشقة كبرى في الحصول على ضروريات الحياة من ملبس ومأكل وأفتى المجتمعون بأن هذه من الأمور المحرمة التي يجب منعها(٢) وطبقت تلك الفتوى بالقوة على الجميع فهل تستطيع حكومة ما مهما بلغت من القوة أن تتصدى لحاشية نساء السلطان ورغباتهن ؟ وأن تناقش في حضرة السلطان أمراً حساساً كقمصان نسائه هل تستطيع حكومة أن تفعل ذلك دون مساندة علماء الدين الإسلامي .

---

(١) انظر ابن بطوطة " الرحلة جـ ١ ص ١٤ - ط . القاهرة ١٩٦١ .

(٢) انظر / د . نظير حسان سعداوى : صورة مظلة من عصر المماليك ص ٦٤ .

أليس هذا مظهراً من مظاهر قوتهم والحق يذكر أن سلاطين المماليك أتاحوا للعلماء القيام بدورهم العظيم في خدمة الدعوة الإسلامية من خلال مشاورتهم قبل الإقدام على أعمال هامة . وكان للعلماء والتجار أيضا المشاركة الفعالة في شئون الحكم مما ينفي الدكتاتورية من حكم المماليك وإن كنا لا ننفي وجود بعض الممارسات الدكتاتورية التي ترجع إلى سلاطين ضعاف لا يؤثرون على عموم سلاطين المماليك . الذين تملكوا نواصي العرب والعجم على قول الرحالة ابن بطوطة ففتحوا أبواب القاهرة لجميع الوافدين أفراداً أو جماعات على تباين جنسياتهم ومذاهبهم السياسية ومعتقداتهم الدينية[1] . فأوى إليها ملوك فقدوا عروشهم وسكنها لاجئون سياسيون اضطهدوا في أوطانهم وحل بها حجاج عابرون إلى الأراضي المقدسة ونالوا الرعاية والحماية وهاجر إليها المهاجرون من المغول بقصد الاستيطان .

ثانيا : اتهام المماليك بالسكر والمجون والعربدة :

اتهم كتاب التاريخ وخاصة المستشرقين سلاطين المماليك بالسكر والمجون والعربدة . هؤلاء السلاطين الذين كانوا يعتبرون أن الجهاد الإسلامي ضد أعدائهم من الفرنج والتتار وغيرهم فريضة من الواجب إقامتها . أي أنها لم تكن غائبة كما هي الآن في عالمنا المعاصر كما أنهم كانوا يرون أن الخلافة من الواجب إقامتها لأنها هي التي تجمع شمل المسلمين وهي كالسياج الواقي

---

(١) انظر المرجع السابق ص ٦٤ .

للأمة . وحينما لاحظوا ضعف سلطان الخلافة ، قاموا بتدعيمها ومساندتها إيمانا منهم أن الخلافة جزء من الاسلام[1] ولذلك نجدهم يتبعون استراتيجية الاندماج التى نادى المماليك بها إلى توسيع الدولة المصرية لتشمل سوريا وأرمينيا والأناضول وتكوين جبهة إسلامية قوية فى مواجهة قوى الشر المتحالفة وانطلاقا من قوله تعالى " وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا "[2] وقامت هذه الدولة التى اتهم سلاطينها بالسكر والمجون والعربدة بإنقاذ الحضارة من خطر التتار حيث قامت الجيوش المصرية بقيادة ملكها المظفر قطز بالمبادرة ولقاء العدو القادم واستطاع الجيش المصرى فى عين جالوت أن يلحق الهزيمة بالجيش التترى ولأول مرة انهزم جيش التتار وتبعتهم الجيوش المصرية تذيقهم بعض ما أذاقوا الآمنين . فقتلوهم وشردوهم وصاروا يقتلون ويأسرون . ولم يكتف المصريون بإجلائهم من دمشق . فلما أجلوهم بقيادة الظاهر بيبرس من المدن السورية والثغور كانت هذه أول مرة تنكسر فيها تلك الصخرة القوية التى جاءت من الصين هاوية على رؤوس الناس وخاصة المسلمين ولا يعلم إلا الله أين كانت تقف لو لم يؤيد الله المصريين بنصره فى عين جالوت ومن المؤكد أنها كانت قاصدة أوربا . ولذلك يقول المؤرخون إن مصر عندما حطمت تلك الصخرة لم ينقذ الإسلام وحده بل أنقذت المسيحية أيضا وبل

---

(١) انظر د / جمال عبد الهادى : أخطاء يجب أن تصحح فى التاريخ الطريق الى بيت المقدس ج ١ ص ١٦٣ - الوفاء للطباعة والنشر .

(٢) سورة آل عمران آية رقم ١٠٣

أنقذت الحضارة من أن يقضي عليها أولئك الوحوش (١) . فليعرف أولئك الذين تطاولوا على سلاطين الدولة المملوكية أنهم حموهم بصنيعهم أمام التتار من الفناء . هؤلاء القوم الذين اتهموهم بالسكر والمجون قاموا برحلة جهاد طويلة أمام الصليبيين فتمت مواصلة أعمال صلاح الدين بعد هدنة طويلة انتهت بتصفية الإمارات الصليبية المتبقية والاستيلاء على عكا آخر معقل للصليبيين . فكان سلاطين المماليك بحق حماة الدولة الإسلامية . فيذكر أن بيبرس عندما طلبوا منه الهدنة رد عليهم بمنتهى الجفوة وقال لرسلهم ردوا ما أخذتموه من البلاد وفكوا أسرى المسلمين جميعهم فإني لا أقبل غير ذلك ثم طردهم من مجلسه مما يدل على تصميمه على القتال (٢) . ثم لو أننا نظرنا إلى عهد المماليك في مصر . وقيس هذا العهد بما وصلت إليه الخدمة الاجتماعية في انجلترا أو روسيا ؟ إننا ندع الإجابة على هذا التساؤل للوثيقة التاريخية التي أثبتت فيها " وحجة وقف مستشفى قلاوون " فقد جاء في هذه الحجة ما يلي :-

" أنشئ هذا البيمارستان لمداواة المرضى من المسلمين الرجال والنساء من الأغنياء المثرين والفقراء المحتاجين بالقاهرة وضواحيها من المقيمين بها والواردين عليها وعلى اختلاف أجناسهم وتباين أمراضهم وإصاباتهم . يدخلون جموعا ووحدانا وشيبا وشبابا ويقيم به المرضى الفقراء من الرجال والنساء لمداواتهم لحين برئهم وشفائهم ويصرف ما هو معد فيه للمداواة ويفرق على البعيد والقريب والأهل والقريب من غير اشتراط لعوض من الأعواض ويصرف الناظر من ريع هذا الوقف وما تدعوا حاجة المرضى إليه من سرر جريد أو خشب على ما يراه

---

(١) انظر / د . / محمد محمد أبو زهرة : الامام ابن تيمية حياته وعصره وآراؤه الفقهية ص ١١٥ - دار الفكر العربي .

(٢) انظر / د . أحمد مختار العبادي : تاريخ دولة المماليك البحرية ص ٤٧ .

مصلحة ، أو لحف محشوة قطنا وطراريح محشوة بالقطن . فيدخل لكل مريض من الغرش والسرر على حسب حاله وما يقتضيه مرضه عاملاً في حق كل منهم بتقوى الله وطاعته باذلا جهده وغاية نصحه فهم رعيته وكل راع مسئول عن رعيته ويباشر في المطبخ بهذا البيمارستان ما يطهى للمرضى من دجاج ولحم ويجعل لكل مريض ما طبخ له في زبدية خاصة به من غير المشاركة لمريض آخر ويغطيها ويوصلها لكل مريض إلى أن يتكامل إطعامهم ويستوفي كل منهم غذاءه وعشاءه وما وصف له بكرة وعشيا . ويصرف الناظر من ريع هذا الوقف لمن ينصبه من الأطباء المسلمين الذين يباشرون المرضى مجتمعين ومتناوبين ويسألون عن أحوالهم وما يجد لكل منهم من زيادة مرض أو نقص ما ويكتبون ما يصلح لكل مريض من شراب وغذاء أو غيره في " دستور ورق " ويلتزمون المبيت في كل ليلة بالبيمارستان مجتمعين متناوبين ويباشرون المداواة ويتلطفون فيها . ومن كان مريضا في بيته .. وهو فقير . كان للناظر أن يصرف إليه ما يحتاجه من الأشربة والأدوية والمعاجين وغيرها ، مع عدم التضييق في الصرف[1] .. ألخ

هذه حجة مستشفى قلاوون التي أملتها الروح الإسلامية من سبعة قرون والتي تدل على تمسك سلاطين المماليك بالشريعة الإسلامية وتدل أيضا على التقدم العلمي الواضح في عزل المرضى عن بعضهم البعض خشية من انتشار العدوى في وقت كانت أوربا وقتئذ أقطاراً لا تعرف غير قوانين الغابة[2] فهل يعقل أن

---

(١) انظر / د . محمد محمد أمين الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر ص دار النهضة العربية ١٩٨٠ .

(٢) انظر / د . محمد الغزالي : ليس من الاسلام ص ٢٧ - مكتبة وهبة .

نتهم عصرا بأكمله بالمجون نتيجة لحوادث معدودة وإن كان استند البعض إلى زيادة الإضطرابات الداخلية . في دولة المماليك البرجية . ولكن المؤرخين الذين يعتد بهم [١] أجمعوا على أن حكم بعض ملوك الشراكسة كان مثلا يحتذى به في النزاهة ، والسهر على راحة الرعية ونشر العلوم والمعارف ، حتى كان الناس يبكونهم لفجيعتهم ومن هؤلاء الملوك العظام برقوق والأشرف برسباى وقانصوه الغورى وطومان باى . وأيك لو جمعت عدد السنين التي حكم خلالها هؤلاء لوجدتها تربوا على المائة عام من مجموع السنوات التي حكم خلالها ملوك الشراكسة وهو مائة وخمسة وثلاثون عاما . فلقد جاء السلاطين المماليك الوقود من ممالك المشرق والمغرب ومن العرب والعجم ومن الدول الإسلامية ومن قارات أفريقيا وأوربا وآسيا [٢] . حقا لقد غدت القاهرة حاضرة الدنيا في عهدهم .

ثالثاً : اتهام السلاطين المماليك باضطهاد أهل الذمة :

يزعم المستشرقون ومن سار على منوالهم أنّ أهل الذمة اضطهدوا في العصر المملوكي . وفي الواقع أن معاملة سلاطين المماليك لأهل الذمة كانت مستمدة من الروح الإسلامية ملتزمين العدالة تجاه غير المسلمين عملا بتعاليم الدين الإسلامي . فقد تمتع أبناء الأقليات الدينية سواء من اليهود والنصارى بممارسة

---

(١) انظر / د . راسم رشدى : مصر والشراكسة ص ٤٨ .

(٢) انظر / د . نظير حسان سعداوى صور ومظالم من عصر المماليك ص ٦٤ .

كل المهن والحرف التي مارستها المسلمون ومن ناحية أخرى فإن الوثائق تشير بوضوح إلى أن اليهود والنصارى فقد تملكوا العقارات في شتى أنحاء البلاد إما عن طريق البيع والشراء وإما عن طريق الموازنة . كما تدل الوثائق على أن اليهود والنصارى كانوا يتعاملون مع المسلمين في عمليات البيع والشراء في حرية تامة في ظل القرآن الكريم الحاكمة آنذاك[1] ورغم ذلك استشهد أهل الذمة في ذلك العصر بميولهم وتواطئهم مع التتار ضد المسلمين . مما جعل الملك الظاهر بيبرس والذي استشهد بالعدل والأخلاق الحميدة لم يعاملهم معاملة تنطوي على العطف والرعاية بسبب ما كانوا يقومون به من المناوشات والفتن . فقد حدث أن أكثر الحريق بالقاهرة أثناء اشتغاله بفتح أرسوف سنة ٦٦٣هـ وأشيع أن النصارى هم الذين أشعلوا هذه النيران . فلما عاد بيبرس إلى مصر أنكر عليهم هذه الأمور التي تفسخ عهدهم ثم أمر بإحراقهم فشفع فيهم الأمير فارس الدين أقطاي أتابك العساكر على أن يلتزموا بدفع قيمة ما أحرق وأن يقدموا لبيت المال خمسين ألف دينار في كل عام فأطلق صراحهم وتولى بطريقهم دفع الأموال المطلوبة والتعهد بألا يعودوا إلى فعل شيء من المنكرات وألا يخرجوا عما هو مقدر لأهل الذمة[1] وكان عهد الناصر أكثر عطفا على النصارى ممن سبق من سلاطين المماليك . حتى أنه أمر بإعادة كل من طرد منهم إلى وظيفته ومنع عنهم الأذى . اللهم إلا إذا استثنينا بعض الحوادث العارضة التي كانت تؤدي إلى تغير السلطان والعامة . أما مرسوم الملك الناصر بتميز عمائمهم فكان له ما يبرزه وهو ما كان يخشاه من عيون النصارى

---

(١) انظر د / علي ابراهيم حسن : تاريخ المماليك البحرية ص ١٤٩ - النهضة المصرية سنة ١٩٦٧ .

(٢) انظر د / جمال الدين سوور : دولة الظاهر بيبرس ص ١٥٣ - دار الفكر العربي ١٩٦٠ .

الباقين من الحملة الصليبية وأن يكون بعض الذميين عيونا لهم[1] وحتى لا يبيث من يميلوا إلى الصليبين سمومهم في الجماعة الإسلامية فالمعاملة كانت من جنس العمل . حيث أحسن سلاطين المماليك إلى أهل الذمة طالما التزموا بواجباتهم وجهدهم حماية للأمة الإسلامية . وذلك ما يقتضيه العقل السليم والشرع وخلاصة القول " أنّ الموقف الرسمي لسلاطين المماليك تجاه رعاياهم لغير المسلمين من خلال الوثائق الكثيرة التي خلفها لنا ذلك العصر[2] كانت تحفظ لأهل الذمة حقوقهم ومصالحهم . فقد حددت المراسيم من السلاطين والأمراء طوال عصر المماليك التي تحفظ لأهل الذمة حقوقهم .

---

(١) انظر / د محمد محمد أبو زهرة : ابن تيمية حياته وآراؤه الفقهية ص ٦٣ - دار الفكر العربي .

(٢) للاطلاع على تلك الوثائق راجع / قاسم عبده : أهل الذمة في مصر ص ٤٤ - دار المعارف سنة ١٩٨٣ .

الفصل الثانى

نهايـة الدولـة المملوكيـــــة

" الفصل الثانى "

نهاية الدولة المملوكيــــــــة

أسباب سقوط الدولة المملوكيـــة :-

تعرضت الدولة المموكية إلى عوامل عديدة متشابكة كانت سببا فى أنهيـــار تلك الدولة التى حكمت لمدة قرنين ونصف من الزمان . فهناك عوامــــــل داخلية تكمن فى انهيار الأنظمة والفساد فى كيان الدولة المموكيــــــــة هذا إلى جانب العوامل الخارجية التى كانت بمثان المعجل لسقوط الدولــة التى كانت على حافية الإنهيـــار .

اولا : العوامل الداخليــة :-

حيث دبت الشيخوخة فى أوصالها واعترى [1] الفساد فى نظمهــــا . فعجزت عن الإحتفاظ بكيانها وسرى الضعف فى دولة سلاطين المماليـــــك ويرجع هذا الضعف إلى عوامل أساسية تتعلق بالنظام الذى قامت عليه الدولـة المملوكية وأهم هذه العوامل :-

١ - فساد النظام الإقطاعـــى :-

الدولة المموكية دولة إقطاعية حيث إن الأرض ملك للسلطان ..... الــذى يقوم بتوزيعها على الجنود . وأى هزة زراعية معناها أنهيار النظام ، وبالتالى الدولة لذا حرصت الدولة عندما عجزت على تلبية احتياجاتها إلى فــــــرض ضرائب جديدة على الشعوب مما يؤدى إلى قيام اضرابات كانت معجلـــــة لنهاية الدولة المملوكيـــة .

---

(١) انظر د / نعيم زكى طرق التجارة الدولية بين الشرق والغرب فــــى آواخر العصور الوسطى ص١٣ الهيئة المصرية العامه للكتاب س ١٩٧٣ .

٢ - إختلال نظام المماليك الإجتماعي والحربي :-

اختل النظام الإجتماعي والحربي نتيجة لإهمالهم الأسس التي قامت عليها تربيتهم ونشأتهم الأولى . حيث كانوا يصلون إلى مصر صغاراً يتعلمون الطاعة يتحلون بالدين والأخلاق . وأدرك مؤرخوا ذلك العصر الدور الحيوى فى سلوك المماليك فيذكر ابن تغرى لنا ذلك فيقول " لله در ذلك الزمان وأهله ما كان أحسن تدبيرهم وأصوب حدسهم من جودة تربية صغيرهم وتعظيم كبيرهم حتى ملكوا البلاد ودانت لهم العباد واستجلوا خواطر الرعية فنالوا الرطب السنية "(1) وجعلها المقريزى من مفاخر السلطان قلاوون حيث قال " لو لم يكن من محاسنه إلا تربية مماليكه وكف شرهم عن الناس لكفاه ذلك عند الله"

هذا الجانب الى خضوع المملوك لتربية عسكرية فى مرحلة الشباب فأصبحت لديهم القوة العسكرية والتى قاد أمرها الروح الإسلامية فكان لهم مواقف عظيمة فى الجهاد ولكن سبحانه وتعالى يغير ولا يتغير . حيث تولى الحكم سلاطين أهملوا ذلك الجانب التربوى . وجلب المماليك وهم فى سن الشباب وتلك عملية خطيرة إذ أن قدوم المماليك من مناطق مختلفة وهم فى هذا السن جعل الأفكار متضاربة مما أفقدهم روح النظام والطاعة وحل محلها العصيان والتمرد وكانت الطامة الكبرى جهلهم الأمور

---

(1) ابن تغرى النجوم الزاهره جـ ٨ ص ٢٢٨ المؤسسة المصرية العامه .

الشرعية والعسكرية معا، وفي عهد الناصر فرج[1] أهمل شأن المماليك حتى صاروا من أرذل الناس وأدناهم وأحطهم قدرا وأشحهم نفعا وأجهلهم بأمر الدين ، وأكثرهم إعراضا[2] وفي ذلك يقول الله " وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً "[3] فكان ذلك سبيلهم إلى الإنحراف .

٣ - إنحراف المماليك :-

انتشر الفساد في كيان الدولة المملوكية ويذكر أن الناصر فرج كما يحدثنا عنه بن إياس : أنه جعل شرب الخمر من شعائر المملكة عام ٧٩١ هـ - س ١٣٨٩ م فكان الأمراء يجتمعون في الميدان الذى تحت القلعة يشربون ويسكرون بحضور السلطان[4]. وأنتشر اللهو والمجون والتبذل وفي ذلك بلاء عظيم حيث تجاهروا بالمنكرات فكثرت ذنوبهم وفي ذلك يقول بن القيم " ومن عقوبات الذنوب أنها تزيل النعم وتحل النقمة

---

(١) الناصر فرج : هو السلطان فرج بن السلطان برقوق أول ملوك الجراكسة كان الناصر هذا اعظم الناس حزلانا لدين الاسلام واشأمهم طلعة على المسلمين والعجيب أنه لما ولد أقيل يلبغا الناصرى ومنتاش فبشريه أباه فسماه (بلغاق) يعني فتنه . فلما خلص ابوه من سجن الكرك سماه فرجا فكان أسمه الاول وهو الحقيقي . انظر بن حجر العسقلاني : أنباء الغمر بأبناء العمر ج٢ ص ٥١١ .

(٢) انظر/ على مبارك : الخطط التوفيقية ج١ ص ١٢٤ الهيئة المصرية العامة : س ٦٩ .

(٣) سورة طه آيه ١٢٤ .

(٤) ابن تغرى : النجوم الزاهره ج ص . الموسسه المصريه العامه .

فما زالت عن العبد نعمة إلا بسبب ذنب ولا حلت به نقمة إلا بذنب

كما قال على بن أبى طلب رضى الله عنه ما نزل بلاء إلا بذنب

ولا رفع بلاء إلا بتوبة (1) وقد قال الله تعالى "وَمَآ أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ (٢)" وقال تعالى "ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ" (٣) وفى ذلك يقول الشاعر :-

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت   فإن هموا ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وتكاسلوا عن الجهاد فانطبق عليهم قول الإمام بن تيمية "إن الناس إذا اشتغلوا بالجهاد فى سبيل الله جمع الله قلوبهم وألف بينهم ، وجعل بأسهم على عدو الله وعدوهم وإذا لم ينفروا فى سبيل الله عذبهم الله بأن يلبسهم شيعا ويذيق بعضهم بأس بعض (٤)" فكان حالهم هكذا حيث تفرقت كلمتهم وصاروا أحزابا وشيعا (٥).

وصارت بينهم الحروب المتفاقمة . وتقاتلوا فى حارات القاهرة وضواحيها وتولى الحكم سلاطين ليس لهم من الحكم إلا الاسم لصغر سنهم ، فتسارع الأمراء واستبدوا بالسلطة . فكان يتولى الحكم فى السنة الواحدة

---

(١) ابن القيم : الجواب الكافى ص ٤٩ مكتبة المتبلى

(٢) سورة الشورى أية ٣٠ .

(٣) سورة الانفال آية ٥٣ .

(٤) بن تيمية : الفتاوى الكبرى جـ ٥ ص ٤٤ ، ٤٥ .

(٥) أنظر / على مبارك : الخطط التوفيقية جـ ١ ص ١٤٥ الهيئة المصرية العامة .

أكثر من سلطان .فكانت مدة حكم بعضهم لا تتعدى شهرين فأصبحت لهم قلاقل واضطرابات استمرت سنوات[1] مثلما حدث في س ٨٨١ هـ - س ٨٨٣ هـ وغير ذلك من الفتن وانتشر الظلم في البلاد فكان ذلك طريق السقوط حيث قيل إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة ولا يقيم الدولة الظالمة وإن كانت مسلمة ويؤكد هذه الحقيقة حديث الرسول صلى الله عليه وسلم لقومه وعشيرته فقد رشحتهم مكانتهم في جزيرة العرب لسيادتهم وتولي مقاليد الحكم ولكن النبي صلى الله عليه وسلم بين لنا أن دوام الملك بالخلق وحده .

عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " الأئمة من قريش ولي عليكم حق عظيم ولهم ذلك إذا ما فعلوا ثلاثاً : إذا استرحموا رحموا ، وإذا حكموا عدلوا ، وإذا عاهدوا وفوا . فمن لم يفعل ذلك فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين[2] فهذا الحديث حاسم في أنه لا مكانة لأمة ولا لدولة ولا لأسرة إلا بمقدار ما تمثل في العالم من صفات عالية .[3] فكأن كثرة الظلم والفساد داعياً إلى السقوط .

---

(١) أنظر د / عبد المنعم ماجد طوماي باي ص ٦٨ مكتبة الانجلو المصرية س ١٩٧٨ .

(٢) مسند الامام أحمد بن حنبل . منتخب كنز العمال في سنن الاقوال والافعال المجلد الثالث ص ١٢٩ دار الفكر العربي .

(٣) انظر / محمد الغزالي : خلق المسلم ص ٣١ دار الكتب الاسلامية .

٤ ـ أنتشار الرشوة والمحسوبية :

إنّ الرشوة والمحسوبية إذا ما أنتشرت في المجتمع تقضي عليه كما تقضي المكروبات والأمراض الخبيثة على الإنسان .

ولذا نجد الشارع يحرم ذلك فيقول الله تعالى "وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ [1]" "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ [2]".

وروى الترمذي بسنده عن عبد الله بن عمر ، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "لعن الله الراشي والمرتشي" [3]

وقال العلماء الراشي هو الذي يعطي الرشوة والمرتشي هو الذي يأخذ الرشوة . وإنما تلحق اللعنة الراشي إذا قصد بها أذية مسلم أو ينال بها مالم يستحق . [4]

وأصبحت الرشاوى والمبذولات هي القاعدة المتبعة في تولي الوظائف والمشكلة أنها أصبحت هي القاعدة في تولي وظيفة الحسبة

---

(١) سورة البقرة آية ١٨٨ .

(٢) سورة النساء آية ٢٩ .

(٣) مسند الامام بن حنبل ـ المجلد الثاني ص ٣٨٧ دار الفكر العربي .

(٤) أنظر / الذهبي : الكبائر ص ١٤٣ ـ مكتبة المتبني .

فيذكر أنه خلال حكم السلطان الناصر فرج أصبح من الممكن أن نجد ثلاثة أو أربعة تعيينات[1] في شهر واحد وانتشرت المحسوبية التي جعلها رسول الله صلى الله عليه وسلم من أسباب سقوط المجتمعات فعن عائشة رضي الله عنها قالت كانت مخزومية تستعير المتاع وتجحده فأمر النبي صلى الله صلى الله عليه وسلم بقطع يدها فأتى أهلها أسامة بن زيد فكلموه فيها فكلم النبي صلى الله عليه وسلم فقال له النبي يا أسامة لا أراك تشفع في حد من حدود الله تعالى ثم قام النبي صلى الله عليه وسلم خطيبا فقال "إنما أهلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف قطعوه : والذي نفسي بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها فقطع يد المخزومية"[2]

فالمحسوبية تعطي الشيء لمن لا يستحق وانتشرت في عهد السلطان برقوق حيث أنعم على قريبة الأمير قجماس بأمراء المائة وتقدمة ألف بالديار المصرية، وهو آنذاك لا يحسن اللفظ بالشهادتين[3].

---

(١) انظر / د . سهام مصطفى أبو زيد : الحسبة في العصر المملوكي الهيئة المصرية العامة الكتاب س ١٩٨٦ .

(٢) سنن النسائي - شرح الحافظ السيوطي - الجزء السابع والثامن المكتبة العلمية بيروت - لبنان ص ٧٥ .

(٣) انظر / بن تغرى : النجوم الزاهرة جـ ٩ ص ١٩٨ - الموسسة المصرية العامة .

ثانيا : العوامل الخارجية :-

تعتبر العوامل الخارجية بمثابة المعجل لسقوط الدولة المملوكية التى أصبح سقوطها نتيجة حتمية بسبب انهيارها الداخلى .

١ - الصراع بين المماليك والبرتغاليين :-

عاشت الدولة المملوكية عيشة مترفة نتيجة للدخول الكبيره التى حصلت عليها عن طريق التجارة فى المياه الشرقية والتحكم فيها بين الشرق والغرب[1] إذ أنه من المعروف أن حركة المغول التوسعية أدت منذ القرن السابع الهجرى الثالث عشر الميلادى إلى ضياع[2] أهم طرق التجارة الرئيسية المألوفة بين الشرق والغرب وخاصة طريق الخليج الفارسى والطريق البرى المار بسمرقند ، وبذلك لم يبق أمام الدول طريق آمن بعيدا عن عبث المغول سوى طريق البحر الأحمر ومصر .

وقد استغل سلاطين المماليك تلك الفرصة فحققت لهم دخلا كبيرا . ففرضت ضرائب باهظة على الواردات الأوربية . فبدأت الجهود لاكتشاف طريق آخر غير طريق مصر فكان اكتشاف البرتغاليين لطريق رأس الرجاء الصالح وتلك كانت أكبر كارثة تعرضت لها الدولة المملوكية نتيجة لذلك

---

(١) أنظر / د . نعيم زكى : طرق التجارة الدوليه بين الشرق والغرب اواخر العصور الوسطى ص ١٧٣ الهيئة المصرية العامه الكتاب س١٩٧٣

(٢) أنظر / د . عبد الرحمن الرافعى ، سعيد الفتاح عاشور : مصر فى العصور الوسطى ص ٥٢٨ .

الإنقلاب المفاجىء في طرق التجارة الدولية مما حرم سلاطين المماليك من المورد الأول الذى استمدوا منه أسباب قوتهم [١] وعظمتهم وأدركوا خطورة الأمر قد خلوا في حروب مع البرتغاليين إلا أنها باءت بالفشل وكسب النصر الطريق الجديد [٢] فلجأ سلاطين المماليك إلى فرض ضرائب مما أدى إلى حدوث أضطرابات وثورات عنيفة .

٢ - الإضطرابات الخارجية :-

جاءت من الخارج فقد اعتاد أمراء سوريا بأن يقوموا بحركات ثورية عنيفة ، شغلت جزءا كبيرا من جهود السلاطين لقمعها هذا إلى جانب غارات البدو المتكررة . وغزو المغول في عهد تيمور لنك . ومضايقات قراصنة الفرنجة [٣] في البحرين الأبيض المتوسط والأحمر .

٣ - الصراع مع الدولة العثمانية :-

سادت علاقات الود بين الدولة العثمانية والمملوكية فترة من الزمن حيث إن الدولتين يربطهما ببعض الدين الإسلامي ولعل أدل على ذلك هو ترحب المماليك ترحيبا واضحا بالإنتصارات التى حققها العثمانيون

(١) انظر المرجع السابق ص ٥٢٨ .

(٢) انظر / د . أحمد شلبي : موسوعه التاريخ الاسلامى جـ ٥ ص ٢٦٣- مكتبه النهضة ١٩٩٠ .

(٣) انظر / د . على ابراهيم : استخدام المصادر وطرق البحث ٣٣ .

ضد بيزنطة ، وعند ما سقطت القسطنطنية شاركت[1] مصر وسوريا العثمانيين في أفراحهم وفي مواكب النصر التي ازدهرت هنا وهناك بمناسبة هذا الحدث البهيج . ولكن العلاقات اتخذت طابعا آخر يتسم بالتوتر في عهد السلطان قايتباى سلطان الدولة المملوكية والسلطان بايزيد الثاني سلطان الدولة العثمانية فكانت تلك المناوشات[2] مقدمة لحروب عديدة أنتهت بسقوط الدولة المملوكية على أيدى العثمانيين في موقعة الرايدانية ١٥١٧ م .

ومن أسباب أنتصار الدولة العثمانية الأسباب التي ذكرناها في سقوط الدولة المملوكية حيث كانت في مرحلة الشيخوخة على عكس الدولة العثمانية هذا إلى جانب تميز الدولة العثمانية باستقرار نظمها وتفوق أسلحة الجيش العثماني الذى أعتمد على الأسلحة النارية المتقدمة مع أعتماد المماليك على البطولة الشخصية .

وكان للإسلام عامل مهم في ميزان الدولة العثمانية إذ أن الدولة المملوكية أنتصرت على الصلبيين والمغول نتيجة لرفع راية الجهاد . أما في تلك المرة فالزاحف دولة إسلامية تشيد باجتماع[3] كلمة المسلمين .

---

(١) انظر / د . أحمد شلبي : موسوعة التريخ الاسلامى جـ ٥ ص ٢٨١ - مكتبة النهضة ١٩٩٠ .

(٢) أنظر / د . نعيم زكى : طرق التجارا الدوليه بين الشرق الغرب اواخر العصور الوسطى ص ٣٢ .

(٣) أنظر / د . أحمد شلبى : موسوعه التاريخ الاسلامى جـ ٥ ص ٢٦٤ ـ مكتبة النهضة ١٩٩٠ .

سقوط الدولة المملوكيــــة :-

نتيجة للأسباب التى سبق ذكرها أصبح سقوط الدولة المملوكيــــة نتيجــة حتميــة .

فطرد الصليبيين من العالم الإسلامى ونهاية المغول فى العــــراق وغربى آسيا ظهر فى العالم الإسلامى قوتان كبيرتــان هما الدولة العثمانيــة والدولة الصفوية ببلاد فارس إلا أن الأولى من أنصار المذهب الســــنى والثانية من غلاة الشيعة فشب بينهما نزاع طويل انتهــى بانتصار العثمانييــن بقيادة السلطان سليم الأول وحدث نزاع بين السلطان قنصوة الغــــورى والسلطان سليم الأول أنتهت بالتقاء الجيشين العثمانى والمملوكى فـــــى مرج دابق ١٥١٦ م وأنتصر الجيش العثمانى وقتل الغورى بعد أن دافـــع عن البلاد بشجاعة فائقة ولكن لم يحالفه النصر وتولى الحكم طومان باى بعــد الغورى وقد حكم حكما حسنا"[1] فى المدة التى قبض فيها على صولجـــــان الملك وكان محبوبا فى البلاد جميعا وبرهن على أنه شجاعا كريما عــــادلا[2] فى كل من عهدى نيابته عن قنصوه وسلطنته ويذكر أنه كان رافدا لتولـــى الحكم حيث كانت الدولة منهارة إلا أن العلماء ضغطوا عليه فقبلها والتقـــى بجيسن العثمانيـــين عند الريدانية ١٥١٧م وخانه بعض أتباعــــــــه به الهزيمة وشنق طومان باى على باب زويلة ويذكر أن السلطان سليم أعجـــب

---

(١) أنظر/ وليم موير : تاريخ المماليك البحرية ص ١٧٦ - طبعـــة المعارف القاهـــرة .

(٢) المرجــع السابـــق ص ١٨١ .

بشخصيته وعزم ألا يقتله لولا أن وشى به بعض الخونة فقتل وبقتله أنقطع حكم[1] المماليك الجراكسة وهذا شأن الدنيا فى أبنائها فتقلب بهم وتتحول عنهم . فسبحان من لا يزول ملكه .

---

(١) انظر / القرمانى : أخبار الدول واثار الاول فى التاريخ ص ٢٢٠ - علم الكتب بيروت - مكتبه المتبنى بالقاهرة .

الخاتمـــــة

الخـــــاتمة

وبعد هذا العرض لسيرة الدعوة في الدولة المملوكية نخلص إلى النتــــائج التاليـــــة :-

١ - الصبغة الإسلامية لدولة المماليك :

فبرغم ما قيل عن دولة المماليك من ألسنة الأدعياء الحاقدين مـــن أنها دولة قامت على الصراع وسلب الشعب حقه إلا أننا نلمح أن الدولـة المملوكية قد صبغت الصبغة الإسلامية قولا وعمـلا بدءا وختـاما دعـــوة وحربا ، ودليلنا على ذلك أن هؤلاء المماليك جيئ بهم لتكوين الجيوش الإسلامية ليحاربوا المشركين ، والدليل الثانى الدعوة والدعـــــاة والمنشآت الدعوية فى تلك الدولة ، والدليل الثالث الانتصارات المدوية لتلك الدولة فى كثير من المواقع الإسلامية ولا سيما عين جالوت ، والدليل الرابع : إحياء الخلافة العباسية .

٢ - الدين الإسلامى لا يرتبط بجنـــس أو لون بعيدا عن التعصب وعــــن القبليـــة وعن الجنـــس وعن اللون ، جاء الاسلام متحررا من الارتبـــاط بقوم دون قوم ، بل جاء للناس جميعـا ، وهذا ما حققته الدولـــــة المملوكية كمثال عملى لذلك حيث أثبتت أن الجنس واللون والأبيـــــض والأسود كله فى ميزان الإسلام سواء وقدمت تلك الدولة بالرغم مــــن منشأها الأعجمى انتصارات تقارب أو تزيد ما حققه العرب .

٣ - قيمة الدعوة في نصرة الدول :

من حكمة الله في أرضه ، ومن مشيئته في خلقه أن جعل من أسباب النصر اتباع سبله والتمسك بحبله ، ورأينا ذلك قد تحقق عمليا ونظريا ، ففي الجانب النظري تعهد ملوك تلك الدولة بنشر الدعوة فأيدوها بالثمين والغالي ، فأنشأوا النظم الإسلامية والمدارس النظامية والمكتبات والمدارس وانطلق الدعاة في أرجاء الدولة معلمين الناس دينهم وأثمر ذلك في الجانب العملي أن صارت دولة المماليك دولة مهابة الجانب قوية المجد فبمجرد ظهور قواتها على الحدود الإسلامية يطمئن الغادي والرائح والمقيم والذاهب من المسلمين على أهله وماله هذا الذي جعل تلك الدولة تجابه أكبر قوة من الهمجية على ظهر الأرض ألا وهي قوة التتار مما جعل الناس يطلقون على ملوك تلك الدولة اسم " سلاطين الإسلام " .

٤ - الحذر من أعداء الإسلام المدلسين :

ومن أهم ما توصلت إليه في ذلك المجال أن التسمع لأعداء الإسلام فيما يبثونه بين ظهرانينا من سموم يخفي علينا الحقائق الكبرى فلولا فضل الله علينا لسقطت هذه الدولة المملوكية من تراثنا الإسلامي العميق . فلقد تعرضت دولة المماليك لحملة شعواء من المدلسين والمستشرقين والعملاء والغربيين ، وغرضهم من ذلك أن يغفل التاريخ الإنساني تلك الدولة التي أنقذت البشرية من الهمجية والدمار ومن ثم لا يكون للمسلمين أي دور من إنقاذ البشرية من المصائب والدمار ، وعلى جانب آخر تهدف تلك الحملات الشعواء على الدول

الإسلامية وخاصة دولة المماليك (إلى أن يفقد المسلم هويته ، ويفقد جذوره العريقة التي تربطه بالماضي فيعيش المسلم ممسوخاً لا أصل له ولا تاريخ يسنده في المستقبل .)

٥ - تسلط الأهواء يؤذن بزوال الدول :

من ضمن ما ابتليت به دولة المماليك الصراعات المستمرة بين بعض من الأشخاص ذوي النفوس المريضة فلقد تناسى أولئك النفر أواصر الصلة الإسلامية ومزقوا بعضهم من أجل دنيا زائلة ، ومتعة راحلة وكان ذلك الصراع الدموي يحتد ويبلغ أوجه عندما يموت أو يقتل الحاكم ، وتظهر الثورات والمظاهرات في الشوارع ويستمر القتل ، وهنا بلغ الجرح مداه ونخر السوس في عظام الدولة ، وتحقق فيهم وعد الله عز وجل " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ . . . "(1) ← مسد مفهوم المخالف

فحين عمل المماليك في آخر عهدهم بنقيض تلك الآية سلط الله عليهم عدوهم وكذلك سلط عليهم أنفسهم . فزالت دولتهم برغم ما حققته من مثل عليا وانتصارات مدوية ، وتلك حكمة الله في خلقه ، يعز من يشاء ويذل من يشاء بيده الخير وهو على كل شيء قدير .

(وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب)

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وسلم .

والحمد لله أولاً وأخيراً

---

(١) سورة محمد - آية : ٧ .

قائمة المراجـــع

قائمـــة المراجع

(أ)

١ - إبراهيم على شرقاوى - مصر فى عصر المماليك الجراكمة - مكتبـــــة النهضة - ١٩٦٠ ص ٧٨ .

٢ - السيوطى - حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة - مطبعـــــة الموسوعات .

٣ - العلاقات السياسية بين المماليك والمغول فى الدوله المملوكيـــــة الأولى - د / فايد عاشور - دار المعارف بمصر .

٤ - القرمانى - أخبار الدول وآثار الأول فى التاريخ - عالم الكتـــــب بيروت مكتبه المتنبى بالقاهـــرة .

٥ - المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى - ابن تغرى - تحقيـــــق محمد محمد أمين ، سعيد عبد الفتاح عاشور - الهيئة المصريـــة العامه للكتاب ١٩٨٠ .

٦ - ابن كثير - البداية والنهاية - دار الفكر العربـــى .

٧ - الدينارى - سيرة الملك الظاهر بيبرس - بيروت .

٨ - ابن تغرى - النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة - الموســـسة المصرية العامـــة .

٩ - أحمد شلبى - الخلافة العباسية - دار النهضـــة . ١٩٨٢ .

١٠- إبراهيم حسن سعيد - البحرية فى عصر سلاطين المماليـــــك - دار المعارف .

١١- المقريزى - السلوك لمعرفة الملوك - القاهـــرة ١٩٧٠ .

١٢- أبو زهرة - ابن تيمية حياته وآراؤه الفقهية - دار الفكر العربـــى .

١٣ - البغدادى - الحوادث الجامعة والتجارب النافعة - المكتبة العربية .

١٤ - أحمد فراج - المماليك الفرنج فى القرن التاسع الهجرى - دار الفكر العربى .

١٥ - أبو زهرة - الحديث والمحدثون - دار الفكر العربى .

١٦ - م د / أحمد شلبى - الحروب الصليبية بدوءها مع مطلع الإسلام واستمرارها حتى الآن - دار النهضة المصرية ١٩٨٦ .

١٧ - ابن بطوطة - الرحلة - ط القاهرة ١٩٦٠ .

١٨ - أحمد صادق الجمال - الأدب العامى فى مصر فى العصر المملوكى ١٩٦٦ .

١٩ - الجبرتى تاريخ عجائب الآثار فى التراجم والأخبار - دار الجيل بيروت .

٢٠ - إبراهيم أحمد عبد الفتاح - القاموس القويم للقرآن الكريم - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٣ .

٢١ - ابن العمرى - مسالك المماليك .

٢٢ - أحمد شلبى - موسوعة التاريخ الإسلامى - مكتبة النهضة ١٩٩٠ .

٢٣ - العينى - عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان - تحقيق محمد محمد أمين الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٩ .

٢٤ - العمرى - مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار - تحقيق دورد و تياكرا فلسكى ١٣٠١ هـ .

٢٥ - ابن العماد الحنبلى - شذرات الذهب جـ ٥ - دار الآفاق الجديدة بيروت .

٢٦ - ابن الأثير - الكامل فى التاريخ جـ ٩ - دار الفكر بـيروت

٢٧ - ابن خلدون - مقدمته - دار الفكـر .

٢٨ - الخطيب الجوهرى - نزهة النفوس والأبدان فى تواريخ الزمـان هامش .

٢٩ - ابن إياس - بدائع الزهور فى وقائع الدهور - الهيئة المصرية العامة للكتـاب ١٩٨٤ .

٣٠ - ابن حجر العسقلانى - التاريخ والمنهج التاريخى - دار اقـرأ - ١٩٨٤ .

٣١ - الذهبى - الكبائـر - مكتبة المتبنى .

٣٢ - العينى - عمدة القارى فى شرح صحيح البخارى - مطبعة البابـى الحلـبى .

٣٣ - القلقشندى - صبح الأعشى جـ ٣ - الهيئة المصرية العامـة للكتـاب ١٩٧٧ .

٣٤ - ابن الفدا - المختصر فى أخبار البشر - جـ ٤ - بيروت .

٣٥ - ابن حجر العسقلانى - أنباء الغمر بأبناء العمر - تحقيـق د / حسن حبشى - القاهـرة ١٩٧١ .

٣٦ - السيد وليم موير - تاريخ دولة المماليك البحرية - ترجمـة محمود عابدين وسليم حسن - دار المعارف القاهـرة .

- أول دورانت - قصة الحضارة - عصر الإيمان جـ ٢ تحقيـق دور دوتياكرا فلسكى ١٣٤٩ م .

- د / أحمد مختار العبادى - قيام دولة المماليك الأولى فـى مصر والشام - موسسة شباب جامعة الإسكندرية ١٩٨٢ م .

(ب)

٣٧ - بيبرس المنصوري - التحفة الملوكية - تحقيق د / عبد الحميد صالح حمدان - القاهرة ١٩٨٧ .

٣٨ - بطرس البستاني - دائرة المعارف ج ٩ .

(ج)

٣٩ - جمال الدين سرور - دولة الظاهر بيبرس - دار الفكر العربي ١٩٦٠ .

٤٠ - د / جمال عبد الهادي - أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ الطريق إلى بيت المقدس - الوفاء للطباعة والنشر .

— جوزيف نسيم يوسف - هزيمة لويس التاسع من الأرض المقدس دار الكتب الجامعية ١٩٧١ .

(ح)

٤١ - حامد غنيم أبو سعيد - الجبهة الإسلامية في عصر الحروب الصليبية ج ٣ - دار الثقافة للطباعة والنشر ١٩٨٤ .

— حامد زيدان - صفحة من تاريخ الخلافة العباسية في ظل دولة المماليك - دار الثقافة ١٩٧٩ م .

٤٢ - جورج زيدان - تاريخ التمدن الإسلامي - ج ٤ - دار الهلال .

(ر)

٤٣ - راسم رشدي - مصر والشراكسة - القاهرة ١٩٤٨ .

(س)

٤٤ - سهام مصطفى أبو زيد - الحسبة في مصر الإسلاميه من الفتح العربي إلى نهاية العصر المملوكي - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٦ .

٤٥ - سعاد ماهر - مساجد مصر وأولياؤها الصالحون - جـ ٣ ، ص٤ القاهرة .

٤٦ - د / سعيد عبد الفتاح عاشور - الحركة الصليبية صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد الإسلامي في العصور الوسطى - دار الفكر العربي ١٣٦٥ هـ .

٤٧ - سليمان محمد الطماوى - نظام الحكم والإدارة في الإسلام - دار الفكر العربي .

(ش)

٤٨ - شحاته عيسى إبراهيم - القاهرة تاريخها ونشأتها - دار الهلال

(ع)

٤٩ - د / على أحمد الخطيب - مجلة الأزهر عدد مايو ١٩٩٣ .

٥٠ - د / عبد المنعم عبد الماجد - طومان باى آخر سلاطين المماليك في مصر - مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٨ .

٥١ - على إبراهيم حسن - تاريخ المماليك البحرية - النهضة المصرية ط ٣ - ١٩٦٧ .

٥٢ - على مبارك - الخطط التوفيقية - جـ ١ - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٦٩ .

٥٣ - د / على السيد على - القدس فى العصر المملوكى . دار الفكر للدراسات والنشر .

٥٤ - د / عبد الطيف حمزة - الحركة الفكرية فى مصر - دار الفكر العربى - ١٣٦٥ .

٥٥ - د / عبدالغنى محمود - التعليم فى مصر زمن الأيوبيين والمماليك - دار المعارف .

٥٦ - د / على سالم النباهين - نظام التربية الإسلامية فى عصر دولة المماليك دار الفكر العربى .

٥٧ - د / عبد الرحمن الرافعى - مصر فى العصور الوسطى - دار النهضة ١٩٧٠ .

٥٨ - عبد الرحمن الجزيرى - الفقه على المذهب حاشية - دار الفكر العربى .

٥٩ - د / عبدالكريم زيدان - أصول الدعوة - مكتبة القدس .

٦٠ - عبد الرحمن الجبرتى - تاريخ عجائب الآثار فى التراجم والأخبار - دار الجيل بيروت .

٦١ - على محفوظ - الإبداع فى مضار الإبتداع - دار الإعتصام .

(ف)

٦٢ - د / فايد حماد عاشور - العلاقات السياسية بين المماليك والمغول فى الدولة المملوكية الأولى - دار المعارف ١٩٨٢ .

٦٣ - د / فؤاد عبد المعطى - المغول فى التاريخ - من جنكيز خان إلى هلاكو - القاهرة ١٩٦٠ .

٦٤ - فتحية النبراوى - تاريخ النظم الإسلامية - دار النهضة العربية ١٩٨٠ .

(ق)

٦٥ - د / قاسم عبده - دراسات فى تاريخ مصر الإجتماعى عصر سلاطين المماليك دار المعارف ١٩٨٣ .

(ك)

٦٦ - كمال الدين صالح - العمارة الإسلامية - القاهرة .

(م)

٦٧ - أ.د / محمد أحمد دياب - محاضرات فى تاريخ الدعوة الإسلامية - أسيوط .

٦٨ - د / محمد يوسف موسى - ابن تيمية - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧١ .

- محمود شلتوت - السيف المهند فى سيرة الملك المؤيد - دار الكتاب العربى ١٩٦٦ ، ١٩٦٧ .

٦٩ - د / محمد محمد أبو زهرة - ابن تيمية حياته وآراؤه الفقهية دار الفكر العربى .

٧٠ - د / محمد جمال الدين سرور - دولة الظاهر بيبرس دار الفكر العربى ١٩٦٠ .

٧١ - محمد عبد العزيز مرزوق - الناصر محمد ابن قلاوون - المؤسسة المصرية العامة .

٧٢ - محمد محمد أمين - الأوقاف والحياة الإجتماعية في مصر . دار النهضة العربية ١٩٨٠ .

٧٣ - محمد بن علي الإسحاقي - أخبار الأول في من تصرف في مصر من أرباب الدول القاهرة .

٧٤ - د / محمد كمال الغقي - الأدب في العصر المملوكي - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٦ .

٧٥ - محمود رزق سليم - عصر سلاطين المماليك - القاهر ١٩٦٠ .

٧٦ - محمد الغزالي - ليس من الإسلام - مكتبة وهبة .

٧٧ - محمد الغزالي - خلق المسلم - دار الكتب الإسلامية .

٧٨ - د / محمد رفعت ومحمد حسونة - معالم تاريخ العصور الوسطى المطبعة الأميرية ببولاق ١٩٣٤ .

(ن)

٧٩ - نظير حسان سعداوي - صور ومظالم من عصر المماليك - مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٦ .

٨٠ - د / نعيم زكي - طرق التجارة الدولية بين الشرق والغرب في أواخر العصور الوسطى - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣ .

(و)

٨١ - وليم موير - تاريخ المماليك البحرية - مطبعة المعارف القاهرة .

فهرس المحتويات

فهرس المحتويات